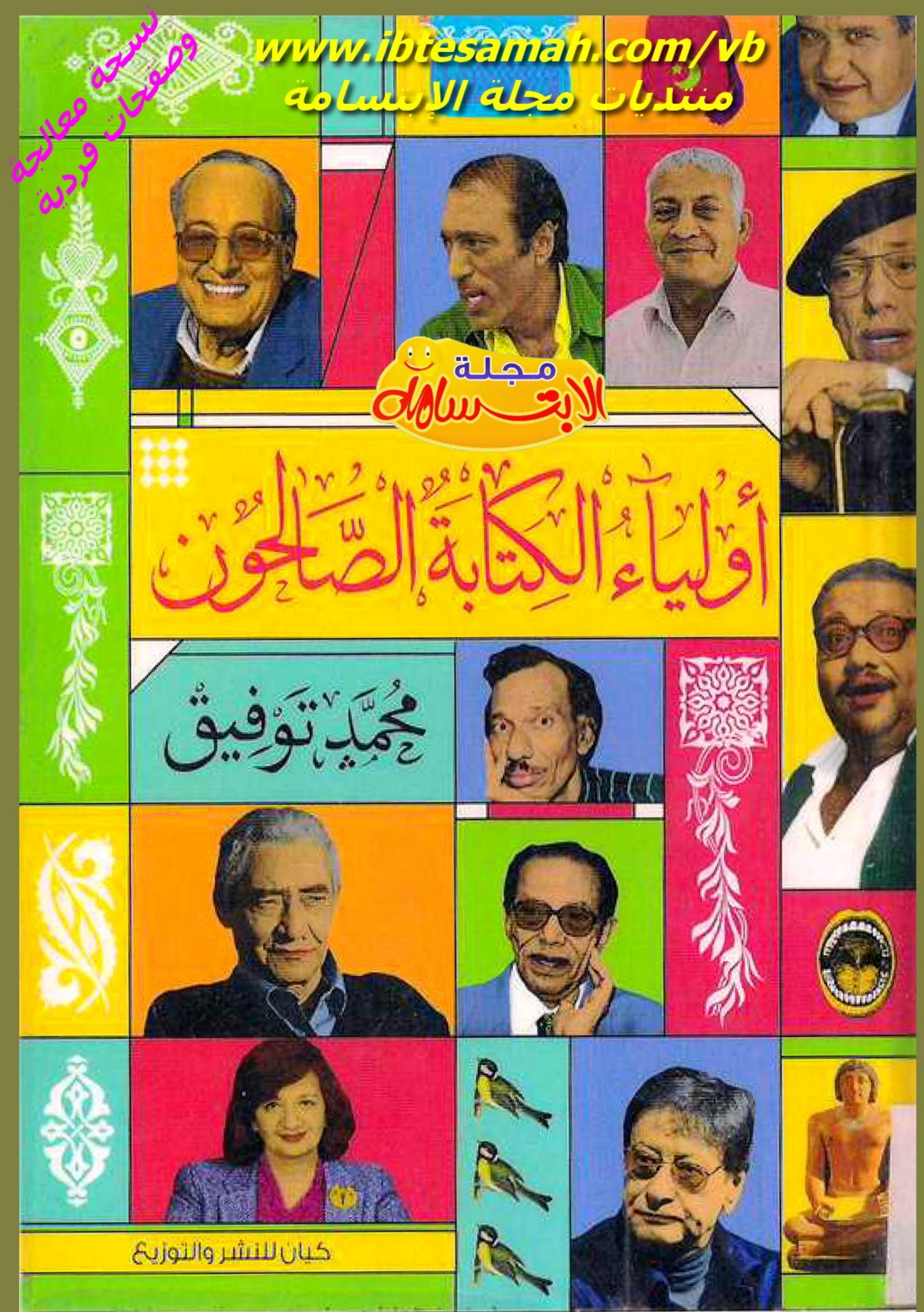

نسخة معالجة وصفحات فردية
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
مجلة الابتسامة
أولياء الكتابة الصالحون
محمد توفيق
كيان للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى لُبنَى..

هذا الكاتب عن جدودك.



وما أدراك ما الستينيات!

ذهبتْ الكاتبة سناء البيسي إلى الدكتور زكي نجيب محمود تبلغه بإعجاب سعاد حسني بإحدى مقالاته في جريدة «الأهرام»، فابتسم الفيلسوف، وبدت مظاهر الانتعاش والحُبور على وجهه ثم علّق قائلًا: «هيَّ سعاد بتقرالي؟!».

لم يُصدق المفكر الكبير الذي قضى عمره بين نظرياته الفلسفية، وأفكاره العميقة، وعباراته الرصينة أن فنانة الشعب واحدة من القراء الذين ينتظرون مقالاته، فرغم كثرة مريديه من صفوة الصفوة، ونخبة النخبة من الفلاسفة والمفكرين وكبار المثقفين فإنه لم يشعر بالسعادة إلا حين علم أن سُعاد تقرأ له!

وهكذا أي كاتب، مهما بدا أنه يكتب لنفسه وأنه غير مكترث وغير عابئ بما يجري حوله ومهما علا شأنه وكثرت جماهيريته وعلا صوت مريديه وتهافت على كتبه الجميع، إلا أنه حين يرى قارئا جديدا خارج الإطار الذي يتوقعه يشعر بفرحة طفل صغير حصل على قطعة شوكولاته على غير انتظار، فما بالك إن كان هذا القارئ هو سعاد حسني ذاتها!

سعاد ونجيب كلاهما بدأ نجمه يلمع في ستينيات القرن الماضي، ورغم التباين الشديد بينهما فإن كليهما كان يُقدِّر الآخر وينتظر إبداعه، وهكذا كان الجيل بأكمله سواء اتفقوا أم اختلفوا، فأحمد رجب كان يُقبِّل يد أستاذه جليل البنداري رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»، ورجاء النقاش أفردَ كاتبًا كاملا عن

الشاعر محمود درويش رغم كونه أصغر منه سنًّا، ومحمود السعدني كتب فصلا في أحد كتبه عن صديقه كامل الشناوي، والشناوي كتب عن مصطفى محمود، والأبنودي رثى صلاح جاهين، وجاهين كتب عن فؤاد حداد...

كل مبدع منهم كان يدرك حجم الآخر ومكانته، رغم أن بعضهم كان أصدقاء والبعض الآخر كان من ألدّ الأعداء، وبعضهم كان من رموز اليمين والبعض الآخر من أعمدة اليسار، وبعضهم بلغت شهرته الآفاق والبعض الآخر لم يحصل على عُشر ما يستحق، وبعضهم كان مترفًا والبعض الآخر كان يعيش بالكاد، وبعضهم كان ثوريًا عنيفًا صادمًا والبعض ظل محافظًا رقيقًا هادئًا، وبعضهم كان متحدثًا بارعًا والبعض الآخر كان لا يتحدث مطلقًا، وبعضهم كان مفكرًا والبعض الآخر كان مفجرًا للثورات، وبعضهم دخل السجن أكثر من مرة وبعضهم لم يَزُر أحدًا في السجن مطلقًا، وبعضهم اقترب من السلطة وبعضهم شارك في تنظيمات سرية هدفها قلب نظام الحكم!

هؤلاء جميعًا بكل خلافاتهم واختلافاتهم «لحم دماغنا من خيرهم» فهم أعمامنا الذين نَدين لهم بالفضل والسبق، ونتعلم منهم ونتّبع خطاهم ونَحْذَر خطاياهم، وندرك حجم قاماتهم وقيمتهم، فكلهم أبدعَ وتفرّدَ وتألّقَ وثارَ وأثّرَ وجدّدَ وصنع مجدًا يصعب على غيره الوصول إليه.

لكن المدهش أن جميعهم عاش ولمع في ستينيات القرن الماضي، وما أدراك ما الستينيات حين التقى كل الجبابرة في عصر واحد وساعة واحدة!

وهي صدفة ولكن بألف ميعاد، كأن القدر أراد أن يلتقوا جميعًا في لحظة فارقة، ويسكنوا أرضًا واحدة، ويصير كل واحد

منهم بمثابة وليٍّ لا يمكن تجاوزه، ولا يجوز أن لا نعرفه، لكنهم كانوا أولياء بلا أضرحة ولا مقامات، لأنهم أولياء للعقول ومُلهِمون لمريديهم سواء كانوا بضع عشرات أو عشرات الملايين، فالاحتفاء بالرموز لا يكون بكثرة الأتباع، ولكن بحجم التأثير، وعِظَم الدور، وقدْر الصدق، وعُمق التجربة، فالأشْهَر ليس بالضرورة الأفضل!



أساطير في الظّل

إذا كان علينا أن ننظر إلى الحاضر بغضب، فعلينا أيضًا أن ننظر إلى نفس الحاضر بخجل!

جميل عارف



صباح الخير يا أستاذ بهاء!

«١»

أيها القارئ..

هل عرفت أحدث تعريف للإنسان؟

لقد قيل مرة: إنه حيوان ناطق، ثم تبين أن الببغاء ينطق.

وقيل: إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.

وقيل: إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل، وإن كان العقل درجات!

وحار العلماء طويلا: فالإنسان كائن حي، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات، ولكن المؤكد أن هناك شيئًا ما يميِّزه عن الحيوان، شيئًا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة.

وأخيرًا اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق: الإنسان حيوان ذو تاريخ!

ما معنى ذلك؟

معناه أن الميزة الأولى التي تميِّز الإنسان عن غيره من المخلوقات أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها، فالإنسان الواعي يرى قطعة الجبنة ويرى المصيدة!

هكذا كان يفكر أحمد بهاء الدين، الذي كان مفكرًا قبل أن يكون كاتبًا، وإنسانًا نبيلا قبل أن يكون صحفيًّا كبيرًا وراقيًا،

ورقيقًا قبل أن يكون محللا وخبيرًا وقانونيًّا؛ فقد تخرج في كلية الحقوق -التي زامله فيها الأديبان فتحي غانم وعبد الرحمن الشرقاوي- وعمل في بداياته مفتشًا للتحقيقات وذهب مع رئيسه المستشار مصطفى درويش للتحقيق في قضية في أحد بلاد الوجه البحري، ونظرا إلى دقة جسمه فقد جاءت شكوى إلى الوزير بأن مصطفى درويش اصطحب معه ابنه الصغير على حساب الحكومة!

بهاء حقوقيٌّ من طراز خاص تعلّم من القانون ما جعل في صدره ميزانًا دائمًا قائمًا يزن به كل شيء، وإذا كان لم يجلس على منصة الأحكام للنظر في قضايا الناس فإنه اختار -بعدما استقال للتفرغ للكتابة في الصحافة- أن ينظرها في عموم الشوارع لا في ساحات المحاكم.

«٢»

كان يدرك أن من اقترب من السلطة احترق! فحافَظ دائمًا على أن تكون هناك مساحة واضحة بينه وبينها، فعلى قدر حرص السلطة على سماع رأيه ورؤيته فإنه لم يكن كاتبها ولا صوتها ولا أحد أبواقها، فقد اختار منذ البداية أن يكون كاتبًا للشعب، فلم يسعَ يومًا لكسب مريدين، ولم يطمع في كسب ود صاحب سلطة أو مال أو نفوذ، فهو يقول ما يعتقد أنه الحق دون حسابات أو مواءمات.

هو من قلائل لم تغيِّرهم تقلبات الأحوال، فلم يتنكر يومًا لرؤيته وفكره، منذ بدأ في «صباح الخير» حتى اختتم مشواره في مجلة «العربي» الكويتية، فرغم الصورة المطبوعة عنه أنه كاتب

الصفوة صاحب الثقافة الراقية، فإن كتاباته عبّرت عن مطالب الجماهير الواسعة، لكنه أيضًا كان ينادي دائمًا بضرورة مواجهة شَطَط الرأي العام، وعدم الاستسلام لكل اتجاهاته.

وإذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين -كما فسّره الأستاذ مصطفى نبيل- أو سعيت للوصول لمفتاح شخصيته وسر جاذبيته والقبول الكبير الذي يتمتع به والمصداقية التي تُحققها كتاباته فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة، المزيج بين الحس الوطني العالي والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ إلى المستقبل مع مسحة إنسانية، وهي كلها تبدو واضحة للعيان في شخصيته وأعماله.

فمنذ شبابه الباكر كان يجمع بين شجاعة المناضل وثقافة المفكر؛ ففي يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ شُجَّ رأسه في حادث كوبري عباس خلال مشاركته في مظاهرة تطالب بالجلاء، وفي الوقت ذاته كان يجلس على مقهى «إسترا» المطلّ على ميدان التحرير، وينهمك في القراءة لساعات طويلة لا يترك شاردة أو واردة، حتى صار المرجع الأول في الصحف والمجلات، لكن عينيه دفعت ثمن نهمه للقراءة، فقد أصيبت عيناه حتى صار من الصعب عليه أن ينظر في جريدة أو كتاب!

«٣»

كان ثوريّ الهوى، لكنه حين قامت الثورة لم يسعَ لأن يكون واحدًا من رجالها في الصحافة، بل كان ناقدًا لبعض تصرفات المحسوبين عليها، فتم نقله من رئاسة تحرير «أخبار اليوم» إلى مجلة «المصور» وهو ما اعتبره بمثابة نفي له، وعلّق قائلا: «إن

نقلي من جريدة يومية هي الأوسع انتشارًا إلى مجلة أسبوعية، كنقل مطرب من ميكروفون الإذاعة إلى ميكروفون في سرادق»!

لكنه حين انتقل إليها طوّرها وغيّر ملامحها وجعلها من أوسع المجلات انتشارًا، مثلما فعل في كل جريدة أو مجلة تولى رئاسة تحريرها، فحين صدرت مجلة «صباح الخير» في ١٢ يناير عام ١٩٥٦، كان بهاء لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، لكنه استطاع أن يحقق قفزة كبيرة في تطور الصحافة المصرية، ويجعل من مطبوعة حديثة نغمة مغايرة لما هو سائد، وروحا جديدة، وصيغة مبتكرة لم يعهدها القارئ من قبل، فجذبت شريحة جديدة من القراء، وجذبت أيضًا جيلا جديدا من الكتّاب الذين صاروا نجومًا في ما بعد، فيكفيه أنه مكتشف صلاح جاهين الذي من فرط حبه له سمّى ابنه «بهاء».

لكن جاهين لم يحب بهاء لصحافته فقط، ولكن عشقه لبساطته، فالبساطة هي السمة الغالبة عليه، البساطة الشديدة التي تظنها في البداية تواضعًا ثم تكتشف أنها طبيعته بلا أي ادعاء أو تكلُّف، يأكل ساندويتش الفول في الشارع، ويفوت على بائع الجرائد يشتري جورناله، البساطة جعلته رئيس التحرير المثقف «اللي بيمشي معانا على الأرض ومش طاير في الهوا» -على حد تعبير البديعة سناء البيسي- يحتضن جيلاتي الدندرمة على الرصيف ويسكن في شقة من حجرة واحدة وصالة ومطبخ بعد توليه أكبر منصب صحفي في مصر وهو رئاسة تحرير «أخبار اليوم».

ورغم شهرته الواسعة في الخمسينيات والستينيات، وتقديره للزعيم جمال عبد الناصر فإنه لم يقترب منه طوال فترة حكمه، ولم يلتقِه لقاء منفردًا رغم وجود مساحة مشتركة بينهما، لكنه

اكتفى أن يعرف الرئيس آراءه عبْر كتاباته، وعبْر صديقه محمد حسنين هيكل.

وحين تولى السادات الرئاسة أمر بنقله من «دار الهلال» إلى ««روزاليوسف»»، فرفض النقل رغم حبه لـ«روزا» التي يعد أحد صنّاعها، وقدّم استقالته، وانتقل للعمل كاتبًا في جريدة «الأهرام» لكن قرارًا آخر صدر بنقله إلى الهيئة العامة للاستعلامات ومعه ١٢٠ كاتبًا من بينهم نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم، فرفض، وفضّل أن يجلس في بيته.

وعقب نصر أكتوبر، عاد إلى الكتابة، وحدث تقارب بينه وبين الرئيس السادات، لكن رغم حرص السادات على تحييده فإنه لم يجد حرجًا من أن يعارض قراراته جهارًا نهارًا ويكتب المقولة الأشهر التي لا يزال صداها يتردد حتى الآن وهي «الانفتاح سداح مداح.. يا ريس»!



مهندس الصحافة

«١»

حين كان حسين سرّي باشا رئيسًا للوزراء أصدر قرارًا أن لا يستخدم صغار الموظفين الأسانسير في مواعيد معينة، وحدث أن شاهد سرّي باشا علي أمين يكسر هذه القاعدة فعنّفه، فردّ عليه علي: معاليك فاكرني مين؟ أنا مش علي، أنا مصطفى رئيس تحرير «آخر ساعة».. فقال له حسين سرّي: «يا سي مصطفى أنا باهزّر.. أنت متصوّر مش هاعرف علي أمين المهندس الصغير بالدرجة السادسة من مصطفى، تعالى اشرب فنجان قهوة في مكتبي وندردش شوية.. يا مصطفى»!

ربما كانت هذه الواقعة رغم طرافتها سببًا في تغيير حياة علي أمين الذي ترك العمل الحكومي، وتفرغ مع شقيقه لإصدار جريدة «أخبار اليوم»، فربما استشعر الفارق بين الصحفي والموظف، وحين جاءت الفرصة أمسك بها، وتمسك باستثمارها، وطوّع كل قدراته من أجل نجاحها، بعد أن كان قد تدرج في العمل الحكومي، حتى صار مديرًا عامًا للمستخدمين والمعاشات.

قليلون جدًا مَن يعرفون الفرق بين ملامح مصطفى وعلي أمين، وأقل منهم مَن يدركون أن كل واحد منهم كان نمطًا مختلفًا، فمصطفى كان العقل، وعلي القلب، مصطفى يستوعب الجميع ويهادن ويوازن أما علي فكان يطلق صيحاته في وجه الجميع دون أي حسابات، فلم تكن لعبة السياسة على رأس

أولوياتـه، فاهتمامـه الأول وربمـا الأوحـد كان الصحافـة وتطويرهـا، لكـن ربمـا رحيلـه المفاجـئ في عـام ١٩٧٥ جعـل البعـض لا يعرفـه، والبعـض الآخـر يجهـل دوره، والأغلـب لجـأ إلى اختـزال التـوأم في شـخص واحـد.

وهـذا أضر عـلي أمـين كثـيراً، فـكل مـا فعلـه عـلي نُسـب إلى مصطفـى، وكل أفـكاره صـارت أفـكار أخيـه، ورغـم أنهـما كانـا يفكـران ويبدعـان ويطـوران ويصنعـان عـشرات الإصـدارات معًـا لكـن كل واحـد منهـما كان لـه دور مختلـف ولمسـة مغايـرة ورؤيـة فريـدة، فمصطفـى كان يعيـش بـين الصحافـة والسياسـة، وربمـا دفـع أغـلى ثمـن للعـب في هـذه المسـاحة!

أمـا عـلي فـكان متخصصـا في تطويـر الشـكل الفنـي للصحـف والمجـلات، وطباعتهـا وتوزيعهـا، وهـو صاحـب عمـود «فكـرة» الـذي ارتبـط باسـم أخيـه، وهـو أيضًـا صاحـب فكـرة عيـد الأم، فقـد طرحهـا لأول مـرة في عمـوده «فكـرة» قائـلا: لِـمَ لا نتفـق عـلى يـوم مـن أيـام السـنة نطلـق عليـه يـوم الأم ونجعلـه عيـدًا قوميًـا في بلادنـا وبـلاد الـشرق، وفي هـذا اليـوم يقـدم الأبنـاء لأمهاتهـم الهدايـا الصغـيرة ويرسـلون إلى الأمهـات خطابـات صغـيرة يقولـون فيهـا «شـكرًا» أو «ربنـا يخليـكي»؟ لمـاذا لا نشـجع الأطفـال في هـذا اليـوم أن يعامـل كل منهـم أمـه كملكـة فيمنعهـا مـن العمـل، ويتـولى هـو في هـذا اليـوم كل أعمالهـا المنزليـة بـدلا منهـا؟ ولكـن أيُّ يـوم في السـنة نجعلـه «عيـد الأم»؟ وبعـد نـشر المقـال في جريـدة «الأخبـار» اختـار القـراء تحديـد يـوم ٢١ مـارس ليكـون عيـدًا لـلأم.

«٢»

والدة علي أمين هي ابنة شقيقة الزعيم الوطني سعد زغلول، لذلك شاء القدر أن يشهد ويشاهد بنفسه ما جرى في ثورة ١٩ -وعمره خمس سنوات- من داخل بيت سعد زغلول، فصنع هذا الظرف وعيًا مبكرًا جدًا لطفل صغير، فبدأ حياته الصحفية عام ١٩٢٢ وهو لا يزال طفلا عمره ثماني سنوات، وأصدر مع شقيقه مصطفى مجلة اسمها «الحقوق» مكتوبة بالقلم الرصاص، وتحتوي على أخبار البيت، وبعدها بعامين أصدرا مجلة «سنة ثالثة ثالث»، ثم أصدرا مجلة «عمارة البالي» لأولاد الحي الذي يقيمان فيه. وفي ١٩٢٨ صدر قرار بفصل علي أمين من المدرسة لأنه صفع حكمدار الغربية الذي حاول الاعتداء على مصطفى النحاس باشا في مدينة طنطا، وبعد عامين صدر عفو عنه ودخل المدرسة الخديوية، ثم التحق بالجامعة الأمريكية وحصل على البكالوريا وسافر إلى إنجلترا وحصل على بكالوريوس الهندسة عام ١٩٣٦.

لكنه لم يتصور أنه سيصبح بعد أقل من عشر سنوات مهندس الصحافة المصرية والعربية، وأنه سيصنع للصحافة شكلا فنيًا مختلفًا ومغايرًا لما اعتاد الناس عليه، فعلي أمين بمثابة سيد درويش الصحافة، فمثلما غيَّر درويش شكل الموسيقى غيَّر أمين شكل الصحافة.

كل تجربة خاضها أضاف لمسة جديدة، فحين انتقل إلى «دار الهلال» ليعمل رئيسا لتحريرها كان توزيعها محدودًا للغاية، وكانت على وشك الإفلاس، لكنه قرر أن يجمع كل نجوم الفكر

والأدب والصحافة في إصدار واحد، فأعاد الحياة إلى المجلة الأعرق، فاضطرت «دار الهلال» لأول مرة في عمرها أن تجمع الورق «الدشت» وتصنع منه نسخًا رديئة الطبع، التهمتها السوق في دقائق بعد أن نفدت كل الكمية المطبوعة!

هذا نتاج ما فعله علي أمين في مجلة «الهلال»، وهذه هي قيمته، فقد بثّ الروح في الصحافة حتى لا تتعرض للانقراض، لذلك قال يومها: «أنا لم أصنع هذه المعجزة، مَن صنعوها هم الذين يحرقون دماءهم وأعصابهم في المقاعد الأولى في صحافة بلادك، إنهم إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وعباس العقاد وطه حسين وكامل الشناوي وصلاح جاهين ومصطفى أمين والدكتور محمد حسين هيكل».

«٣»

لكنّ علي داخل الجريدة شيء، وخارجها شيء آخر!

فعلي أمين خارج الجريدة إنسان وديع وهادئ الطباع، لذلك كان يظن عبد الحليم حافظ أن الفنان حسين رياض هو الأنسب لأن يلعب دور رئيس التحرير في فيلم «يوم من عمري»، خصوصا أنه يرى صديقيه مصطفى وعلي أمين خارج بلاط صاحبة الجلالة حيث سهرات الفن والصحافة والأدب والسياسة، لذلك لم يكن يتخيل أن يرى ما رآه!

ذهب عبد الحليم حافظ إلى «أخبار اليوم» بعد الاتفاق على أن يتم تصوير بعض المشاهد داخلها، وطلب من صديقه أحمد رجب أن يُظهر له حقيقة العلاقة بين المحرر ورئيس

التحرير وأن يستفز علي أمين ليراه بصورته الصحفية حيث التعامل دون تكلُّف أو تصنُّع، وبالفعل داعب التلميذ أستاذه بواحد من مقالبه الصحفية، فانطلق علي أمين وهاج وماج، واندهش العندليب لما رآه، وذهب إلى محمود المليجي ليعرض عليه أن يقوم بدور علي أمين بدلا من حسين رياض الذي كان مرشحًا لعمل هذا الدور!

كان اختيار حليم لأحمد رجب هو الاختيار الأمثل، باعتباره الأقرب إلى قلب علي أمين، إذ كان يقضي معه ١٨ ساعة يوميًا في «الأخبار»، ولا يفارقه إلا في أثناء النوم. يروي أحمد رجب ذكرياته مع علي أمين قائلا: في الخمسينيات فصلني علي أمين عشرات المرات، وأنزلني من نائب رئيس تحرير إلى محرر عشرات المرات، وعشرات المرات أصدر قرارا بنقلي بوابًا لـ«أخبار اليوم» على أن يحلّ محلّي أبو زيد البواب نائبًا لرئيس التحرير، لكن حدث ما جعل علي أمين يكفّ عن تهديدي بأبو زيد، أو على الأصحّ، يقلل من حدته، إذ أرسلتُ إليه مذكرة عن تأخر الأقسام الفنية في إعداد غلاف العدد الجديد، ومع المذكرة صورة الغلاف الملونة من تصوير أحمد يوسف، ونظر علي أمين إلى صورة الغلاف، فإذا بها صورة أبو زيد وعليها تعليق: «أبو زيد معبود النساء» اقرأ ص٢٦! وضحك علي أمين واعتبرها نكتة ورفع سماعة التليفون واتصل بي لكنني كنت في مكتب آخر، فاتصلتُ بعلي أمين منتحلا شخصية رئيس الأقسام الفنية ومقلدًا صوته، وقلت لعلي أمين: أحمد رجب كتب فينا مذكرة وده غير صحيح يافندم لأن غلاف أبو زيد جاهز!



دبّرنا يا كبير

«١»

نموذج مختلف، ومخالف، ومغاير، وجاذب، ولافت، ومهمّ، ومؤثّر، وطاغٍ، ومنفرد، ومتفرّد، وصائغ، وصانع، وطبيب، ومحامٍ، وجورنالجي، وروائي، ومسرحي، وسيناريست، وصاحب مدرسة، وصاحب «سوابق»

إنه الكبير صلاح حافظ.

لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يمكن أن تتجاوزه، فهو ذلك النموذج الذي لا يتكرر كثيرًا الذي يجمع بين المناضل الحقّ، والصحفي الأحقّ بكرسي رئاسة التحرير، لكن حماس المناضل لم يطغَ على صحافته، فلم يكن يُصدر منشورًا سياسيًّا بل أصدر وأشرف على صحف ومجلات جمعت كل فنون الصحافة، لكنها في ذات الوقت كانت تناصر البسطاء وتدافع عنهم وتقف معهم في وجه السلطة.

فهو من قليل وقليل جدًّا ممن جعلوا الصحافة القومية لسانًا للشعب وليست بوقًا للسلطة، وحين كان يختبئ الجميعُ كان يتصدر المشهدَ، وحين كان يعلو صوت الجميع كان صوته مميزًا، ونغمته مغايرة، لذلك كان ضيفًا دائمًا على المعتقلات، يدافع عن الحق، ويقف ضد الظلم، وينصرف إلى السجن غير عابئ أو مكترث بما يجري له ومعه. كان يتقبل السجن كأمر واقع كأنه سيعيش فيه أبدًا، وأنه المكان الطبيعي للإنسان،

وأبدًا لم يشاهَد مرة وعلى وجهه أي علامة للقلق، ولم يسأل مرة متبرمًا: متى يحين وقت الإفراج؟!

كان مشغولا بأعماله، منشغلا بهموم الآخرين وليست لديه دقيقة تعد فائضًا من الوقت، فالأعباء الملقاة على كاهله كثيرة، وعليه وحده أن ينجزها، كتأليف رواية أو إخراج مسرحية أو الإعداد لحفل سمر أو إلقاء محاضرات أو علاج زملائه من المعتقلين أو الحرس الجنود.

وحدث أن جاء مأمور جديد صارم لا يتردد في البطش والقسوة بالمعتقلين ولكن بعد فترة ابتلع ولداه أقراصا كانت دواء مهدئا له تركها سهوًا بجوار فراشه في البيت، فانهار الرجل وسارع يطلب معونة الأطباء المعتقلين، فراح صلاح حافظ وشريف حتاتة لإسعاف الطفلين، وبينما كانا يُجريان الإسعافات الطبية كان المأمور يبكي ويتوسل إلى السماء قائلا: يا رب أنقذ لي ولو ولدا واحدا! فردّ عليه صلاح: وواحد ليه..؟! ده ربنا كبير ينقذ الاتنين. فتعجب المأمور من الرد ليقول: «الله انتم بتعرفوا ربنا زينا؟!»، وجاء رد صلاح: «نعم.. ونعرفه أكثر منكم.. نعرفه بالتصرفات لا بالكلام»، وعندما استرد صلاح حافظ حريته ظل المأمور صديقا لصلاح حتى النهاية.

«٢»

صلاح حافظ كان أسطورة حقيقية، وشخصية أسطورية، فلم يمنعه قربه من الرئيس السادات من أن يسخر منه، وأن يخالفه، ويختلف معه، فحين وقعت أحداث ١٨ و١٩ يناير عام

١٩٧٧ ووصفها الرئيس الراحل بأنها «انتفاضة حرامية»، خرجت ««روزاليوسف»» التي يرأس تحريرها صلاح حافظ، مدافعةً عن حق الشعب في الخروج للتظاهر ضد النظام، وكاشفة أن المظاهرات كانت بمثابة انتفاضة شعبية من أجل الخبز، فقرر السادات إبعاده عن منصبه، هو واثنين معه هما المبدعان عبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم، فدفع صلاح الثمن راضيًا وتفرّغ لزراعة الجرجير، وكتابة سيناريو وحوار رواية فتحي غانم «زينب والعرش».

المدهش أن حلقات هذا المسلسل الأبدع الذي شارك فيه عدد كبير من كبار النجوم من بينهم محمود مرسي وصلاح قابيل وسهير رمزي وحسن يوسف، تمت كتابتها بطريقة غريبة؛ حيث اتفق فتحي غانم وصلاح حافظ على أن يكتب أحدهما الحلقات الفردية والآخر يكتب الحلقات الزوجية، ولم يلحظ أي أحد أي ثغرة في كتابة الحلقات، فالروح كانت واحدة، كأنه أوركسترا يعزف بآلات مختلفة نغمة واحدة.

صلاح حافظ حلّ المعضلة التي ما زال يبحث لها الصحفيون عن حل حتى الآن، فقد جمع بين القدرة على صناعة صحافة يحبها القارئ ويُقبل عليها وينتظرها وتوزِّع آلاف النسخ وفي الوقت ذاته تكون جريئة وحاسمة ومشاغبة ومنحازة إلى البسطاء، خلطة لا تتكرر كثيراً جعلته يقفز بتوزيع ««روزاليوسف»» حين تولى رئاسة تحريرها من ثلاثة آلاف نسخة إلى ما يزيد على المئة ألف نسخة.

وهكذا فعل في كل صحيفة ترأس تحريرها أو أشرف عليها أو عمل مستشارا لها، فقد كان ينتصر للمهنة وللناس ولم تخذله موهبته ولم يخذله الناس، فهو صاحب واحدة من كبرى المدارس

في تاريخ الصحافة المصرية والعربية، فعلاوةً على إعادته الروح في «روزاليوسف»، فقد شارك في وضع حجر الأساس لعدد كبير من مجلات الخليج.

«٣»

وحين قامت ثورة يوليو وجد صلاح حافظ في مبادئها ضالّته المنشودة، وشعر أنها جاءت من أجل تحقيق المبادئ التي يناضل من أجلها، فدافع عنها رغم أنه كان من أسرة ثرية، ووالده «عُمدة»، لكن حين رأى أن الثورة انحرفت عن مسارها كتب مقاله الأشهر «العصابة التي تحكم مصر» فأُلقيَ في السجن بضع سنين تنقّل فيها بين السجون بعد أن كان على وشك التخرج في كلية الطب مثل زميليه يوسف إدريس ومصطفى محمود، لكنه كان قد وقع أسيرًا بين الأدب والصحافة والسياسة، ولم يكن ممكنا إعادة قيده في كلية الطب بعد خروجه من المعتقل، فلم يعد حَسَن السير والسلوك في رأي الحكومة، فقد صار صاحب سوابق، وإن كانت حتى هذه اللحظة سابقة واحدة فقط.

لكنّ حلمَه كان أكبر!

يقول: لم أحلم في أي يوم أن أكون وزيرا لكنني حلمت طول عمري أن أكون سلطانًا يضع ساقًا على ساق ويقول «دبرني يا وزير»!

وحقق هذا الحلم على الورق حين كتب واحدا من أبدع أعماله «دبّرنا يا وزير» ونشره على حلقات في مجلة «صباح الخير» عام ١٩٨٥ ثم جمعها في كتاب وقال في مقدمته: «سأكون

أسعد الناس يوم أن توضع نسخة من هذا الكتاب في المتحف المصري، باعتبارها من آثار عصر قديم لم يعد له وجود، ولم تعد لمؤلفاته فائدة، لأن القضايا التي يثيرها قد تم حلها والحمد لله... وسأكون أتعس الناس لو أعيدت طباعة كتابي عامًا بعد عام، وجيلا بعد جيل ووزيرا بعد وزير، دون أن نصل إلى حل هذه المشكلات».

والمدهش أن المشكلات التي كتبها وفنّدها وحللها وفسّرها وطلب تدخل الوزير فيها، بقيت كما هي دون أي تتغير إلا إلى الأسوأ، لكن الأغرب أن الكتاب أيضًا لم تُعد طباعته!



جميل العارف بالصحافة

«١»

إذا كان علينا أن ننظر إلى الحاضر بغضب، فعلينا أيضًا أن ننظر إلى نفس الحاضر بخجل!

إن بارونات الصحافة هذه الأيام لا يختلفون كثيرًا عن باشوات الصحافة أيام زمان، أي قبل ثورة ٢٣ يوليو، إنهم الباشوات الذين يتحكمون ويتاجرون في أرزاق الصحفيين الذين كانوا يعملون معهم في الصحافة، وذلك بعدما أصبحت الصحافة المصرية جارية في حرملك الطغيان في بلد لم يعد فيه من سلطة سوى سلطة الديكتاتور الواحد، وطغمة من محترفي التآمر والتسلط وحلفائهم الإخوان وبقية دكاكين الإرهاب المعادية للديموقراطية ولنضال الشعب.

«في بلد فَقَدَ نخبته، ويُستعمل فيه الجهل والأمن والدين كأدوات سياسية لتدمير المؤسسات الشعبية وسقوط الدولة، كان من الطبيعي أن تحتل ثقافة الرعاع أغلب الصحف، وساعات الإرسال المرئية والمسموعة، وأن يتم تقسيم الصحفيين إلى تابعين ومعادين، ويتحول شرف المهنة إلى شرف شخصي وكبرياء ومعاناة لدى بعض الصحفيين، في حين ينقلب لدى البعض الآخر إلى دستور للنفاق والفساد، وتكرّس الصفحات لنجوم الاحتراف الديني ورعاة التدين السطحي، وللأسئلة الفاسدة والأجوبة الأكثر فسادًا، وتصبح السطور أداة للفتنة الوطنية وتغطية

جاهزة وتبريرا يوميا لتبديد الوطن، ويسقط الفاصل بين الأمن والصحافة».

هكذا قال العارف بالصحافة جميل عارف في مقدمة كتابه الأجمل «أنا وبارونات الصحافة» الذي جمع فيه خلاصة خبراته وتجاربه وحكايات وأسرار المهنة، ورواها بأسلوب جاذب وشيق وممتع ولاذع وحكى أسرارا كثيرة لم تكن لتُروى لولاه، ومنها أن نقابة الصحفيين كان مقرها الرسمي الأول داخل شقة كانت ناديًا للقمار!

وكانت هذه الشقة تشغل الدور الأرضي من مبنى قديم يتكون من دورين في المكان الذي بنيت فيه عمارة «وهبي» وهي المواجهة للبنك المركزي عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل، وكانت عبارة عن غرفة واحدة وثلاث صالات كبيرة.

وكان بوليس الآداب قد داهم الشقة لكونها وكرًا للعب القمار، وقام بضبط بعض الجرائم المخالفة للقانون فيها، وأراد فؤاد سراج الدين -وكان وزيرا للداخلية والشؤون الاجتماعية في حكومة «الوفد» التي جاءت إلى الحكم بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢- مجاملة الصحفيين فأمر بمصادرة الشقة، وتسليمها لهم في مقر نقابتهم!

«٢»

جميل عارف كان دائمًا يتخذ خط النار سكنًا.

فقد حضر الحرب العالمية الثانية، وكان أول صحفي يزور اليمن في ١٩٤٧ أيام الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن. وبعدها بعام واحد فقط عمل مراسلا حربيا في أثناء حرب

فلسطين عام ١٩٤٨. وحين وقع العدوان الثلاثي على بورسعيد في عام ١٩٥٦ كان حاضرا بجوار الفدائيين يرصد ما يجري على خط النار، وشهد ثورة لبنان في ١٩٥٨، وكان شاهدا على الانقلابات العسكرية في سوريا، وتابع من داخل المدن العراقية ثورات العراق، ورصد ثورة السودان بتفاصيلها، وعاش مع أبطال جيش التحرير الجزائري داخل الأراضي الجزائرية إثر اندلاع الثورة في بلد المليون شهيد.

لم يذهب إلى دولة إلا إذا قامت فيها حرب أو ثورة، لذا عاصر أغلب حركات التحرر في الوطن العربي وإفريقيا، وقام بجولات صحفية في ١٠٩ دول في مختلف أنحاء العالم على مدار ٥٠ عامًا، واشتهر بتحقيقاته الصحفية التي كتبها عن الدول الإفريقية بعد أن حصلت على استقلالها.

وعاصر أحداث الجامعة العربية منذ إنشائها، وعمل لمدة ١٥ عامًا محررا للشؤون العربية، وكان موضع ثقة عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة، لذا قام بنشر مذكراته السرية التي قرأها الرئيس السادات وتأثر بها في أثناء كتابة مذكراته!

وكان ترتيبه في عام ١٩٧٠ رقم ٥٢ في أقدمية الصحفيين بجدول نقابة الصحفيين المصرية، لكنه رغم تاريخه المهني الطويل لم يجلس على مكتبه ينتظر الخبر بل كان يذهب إليه حيثما كان منذ أن التحق بالعمل الصحفي في عام ١٩٤٥ فور تخرجه في جامعة القاهرة وعمله في مجلة «المصور» التابعة لـ«دار الهلال»، لكنه انتقل منها ليعمل في مجلة «آخر ساعة» مع زميل دراسته الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذي كان زميلا له في نفس الفصل لمدة خمس سنوات كاملة، في مدرسة «السعيدية الثانوية»، وشاء القدر أن يلتقيا في «آخر ساعة» حين

صار بهاء رئيسًا لتحريرها، وعمل هو نائبًا له، وظل في موقعه لمدة ١٩ عامًا، ولم يتركه إلا عندما ذهب ليعمل مديرًا لتحرير مجلة «أكتوبر»، وحين خرج على المعاش صار كاتبا متفرغًا في مؤسسة «روزاليوسف».

«٣»

لم يَنَلْ عارف الشهرة التي يستحقها، وتتناسب مع حجم عطائه، لكنّ فارقًا هائلا بين أن تكون صحفيًّا كبيرًا، وأن تكون صحفيًّا مشهورًا، فالشهرة ليست المعيار الأول لقيمة الصحفي وقامته، فبعض مشاهير الصحافة ليسوا كبارًا في المهنة، وبعضهم أقرب إلى مندوب العلاقات العامة الذي يعرف الجميع ويعرفه الجميع فقط لأنه يظهر في كل القنوات في مختلف الأوقات، وآراؤه ترضَى عنها السلطة، وتُرضي القارئ والمشاهد والمُعلِن!

بعضهم يتم التعامل معه وتقديمه باعتباره مفكرًا كبيرًا رغم أنه بلا أي إنتاج فكري، وبعضهم يتم التعامل معه باعتباره خبيرًا ومحللا استراتيجيًّا رغم أنه لم يثبت أنه نجح في تحليل أي ظاهرة أو تقديم أي دراسة حقيقية، وبعضهم إنتاجه الأدبي ضعيف، ولكن يتم تصديره باعتباره أديبًا كبيرًا.

لكن بالطبع هناك مشاهير يملكون قدرات خاصة، ومواهب عظيمة، وأفكارًا نبيلة، وحضورًا طاغيًا، لكن الأكثر شهرة ليس من الضروري أن يكون الأكثر كفاءة، ومهارة، وموهبة.

جميل عارف كان من هؤلاء الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة لكن لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يجوز أن لا تعرفه أجيالٌ من الصحفيين الشباب الذين لم يقرأ بعضهم -للأسف- تاريخ المهنة،

ولم يعرف الرعيل الأول من الآباء المؤسسين لها، والمدافعين عنها الذين دفعوا في المهنة أعمارهم، دون أن يحصدوا أي مكاسب، رغم أنه كان صديقًا لعمالقة الفكر والأدب والصحافة، وكان صديقا للأستاذ هيكل منذ أن تعرف عليه في أواخر الأربعينيات. ويصف هيكل علاقته بعارف قائلا: «جميل عارف رفيق أيام خوالٍ تعود إلى أواخر الأربعينيات، حينما كنا وسط السحابات الوردية للصبا جيلا جديدًا خطفت أحلامه مهنة البحث عن المتاعب فأعطاها نفسه، وقبلت بدورها عطاءه، وأخذت عمره كاملا».

صداقة هيكل وعارف جعلت هيكل يُقدم لكتابه «أنا وبارونات الصحافة» رغم أنه كان يحمل نقدًا لاذعًا، وحادًّا لعدد كبير من الصحفيين والساسة، لذا حين سأل عارف هيكل عن رأيه في الكتاب قال الأستاذ: «لا أنا مختلف مع الكتاب ولا أنا متفق معه»!



ثمن المبادئ!

«١»

كان يدفع ثمن مبادئه راضيًا مطمئنًا، لذا كان ضيفًا دائمًا على سجون الأنظمة الحاكمة سواء من أيّدها أو عارضها أو من تجاهلها!

المرة الأولى التي دخل السجن فيها كانت في عصر الملك فاروق، حيث كان يعارض الإقطاع ويهاجم النخبة الفاسدة والحاكمة، لكنه لم يكتفِ بذلك بل كوّن خلية ضد الاحتلال البريطاني وقرر مع أصدقائه تصفية ثلاثة من أشرس الموظفين البريطانيين وأشدهم دموية، وأرسلوا إلى الثلاثة حيثيات وأسباب الحكم المباشر بتصفيتهم! ومنحوهم مهلة أسبوعين لكي يستقيلوا من مناصبهم أو يرحلوا عن مصر بعد الجرائم التي ارتكبوها في حق الشعب، لكنهم سخروا من الخطابات التي وصلتهم، وظلوا في طغيانهم يعمهون، وفي نهاية الأسبوعين بالضبط تمت تصفية ثلاثتهم مما أحدث فزعًا مدويًا في الإدارة البريطانية التي استماتت في البحث عن الشباب الوطني الذي قام باغتيالهم، والمدهش أن الدكتور مصطفى مشرفة كان عضوا مؤسسًا في هذه الخلية!

أما المرة الثانية التي حلّ فيها عودة ضيفًا على السجون فكانت في عصر الرئيس جمال عبد الناصر رغم كونه واحدًا من رموز الناصرية ومؤرخيها والمنتصرين لأفكارها، لكنه ظل على

موقفه كما هو، بل ويبرر ما حدث معه قائلا: «إن نصف مَن أعدمتْهم الثورة الفرنسية كانوا من زعماء الثورة»، ويضيف: «خلافنا مع عبد الناصر لم يكن تناقضًا بل كان خلافًا حول الأسلوب، أما الأهداف فكنا على اتفاق تام، وقد كان عبد الناصر يدعو كل الاتجاهات السياسية والوطنية لتسهم في بناء وطن جديد يراه عبد الناصر نموذجًا لدولة قومية ديموقراطية مستقلة، ونراه نحن كذلك، لكنّ أسلوب التنفيذ كان موضع اختلاف بيننا».

أما المرة الثالثة فكانت في عهد الرئيس السادات عقب اتفاقية كامب ديفيد التي كان عودة واحدًا من أبرز معارضيها، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد اغتيال السادات، لكن عودة ظل على موقفه المعارض لسياسات السادات. ويفسر الفارق بين خلافه مع عبد الناصر وخلافه مع السادات قائلا: «إن خلافنا مع عبد الناصر كان خلافًا في إطار الهدف الواحد، بينما خلافنا مع السادات كان تناقضًا رئيسيًا».

وحين وصل مبارك إلى السلطة كان عودة قد جاوز الستين، ولم يعد اعتقاله جائزا، ربما هذا هو السبب الوحيد لعدم دخول السجن في هذه الفترة!

«٢»

رغم شهرته بـ«غاندي الصحافة» فإنه كان ابنًا لأحد كبار التجار، لكن والده أشهر إفلاسه إبان احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات، وقرر أن ينتقل للعيش في حي الحسين بالقاهرة القديمة.

والطريف أنه في أول صباح له في حي الحسين خرج مع والده إلى محل «الحلوجي» لتناول طعام الإفطار من الفول المدمس، ففوجئ أن صاحب المحل كان يُعِدّ صباح كل يوم طبقًا من الفول المدمس منزوع القشر ويحمله بنفسه إلى سعد زغلول باشا!

لم يكن هناك أمل أمام الأب إلا أن يتفوق ابنه محمد في دراسته ليتعلم بالمجان، لذا كان يقول له: «يا محمد أنت أملنا الوحيد في هذه الدنيا.. لم يعد لنا بعد الله غيرك يا بني»، ولم يخيِّب الابن أمل والده، فنجح وتفوق في المرحلة الابتدائية لدرجة أنه تم اختياره لإلقاء قصيدة ترحيب بزيارة الملك فؤاد للمدرسة، وسُرَّ جلالته سرورًا بالغًا بالطفل محمد عودة وأهداه طاقم أدوات مكتب من الجلد الفاخر وعاد بالطقم فرحًا إلى البيت لكن والده لم يشاركه الفرحة، وكاد يطرده من البيت؛ إذ كان والده وفديًّا حتى النخاع!

وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة «السعيدية الثانوية»، لكنه بدأ يشعر بالمهانة التي يعانيها أبناء الفقراء، والسبب أن أولاد الأثرياء في «السعيدية» كانت تأتيهم الساندوتشات الجاهزة بينما أبناء الفقراء يهبّون مسرعين إلى اليمكخانة (قاعة الطعام) لنيل الطعام كالقطعان -على حد وصفه- لذا أدمن الهروب من المدرسة والذهاب إلى حديقة الحيوان حتى استدعاه الناظر وسأله عن سر غيابه، وقلة تحصيله الدراسي فطلب نقله إلى فصل آخر بعيدًا عن فصل أولاد الذوات.

وتخرَّج محمد في مدرسة «السعيدية» والتحق بكلية الحقوق، لكنه ثار على نظام التعليم في الكلية، وشعر أنه يُغيِّب العقول،

فصار يتسلل إلى كلية الآداب للاستماع إلى محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب والدكتور شفيق غبريال في التاريخ.

«٣»

شقّ عودة طريقه إلى صاحبة الجلالة بالكتابة في مجلة كانت ذائعة الصيت اسمها «مسامرات الجيب» واستمر بها حتى صدر قرار بإغلاقها، فانتقل إلى صحيفة «الجمهور المصري» بصحبة مجموعة من الموهوبين المَهَرَة الذين نجحوا في إثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك بأسلوب غير مسبوق، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها بالأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار.

ثم انتقل للعمل مذيعًا ومترجمًا في الإذاعة الهندية التي كانت تبث برامجها بالعربية من قلب العاصمة بنيودلهي، وكانت هذه أولى رحلاته خارج مصر، ويقول عنها: «إذا ذهبت إلى الهند لا بد أن تعود، وإذا عدت مرة لا بد أن تعود وتظل تعود». لكنه اضطُرّ إلى العودة إلى مصر بعد عامين من ثورة يوليو، وعمل صحفيًا في صحيفة «الشعب»، ثم تركها إلى «دار الهلال»، لكنه لم يأنس بوجوده داخل هذه المؤسسة، فانطلق إلى «روزاليوسف»، وهناك التقى أحد أصدقائه الذي كان يعمل سكرتيرا لتحرير المجلة، فصافحه وطلب له كوبًا من الشاي ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الدشت» وقال له: «اكتب لنا شيئًا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات (روزاليوسف)»، وكتب، وعمل، فصار واحدا من نجوم «روزاليوسف»، وأحد أعمدتها.

لكن المدهش أنه من فرط حبه للصحافة أصيب بـ«الملاريا» مرتين لكثرة ذهابه إلى أماكن الأوبئة، فلم يركن إلى الجلوس خلف المكاتب، ولم يكن يهوى رحلات الاستجمام بل كان مغامرًا، ولم يكن فقط محبًّا للبسطاء بل كان واحدا منهم أيًّا كان موطنهم، وكتب مئات المقالات عنهم، لكنه لم يكتب كتبًا كثيرة فاكتفى ببضعة كتب لكنها على قلة عددها بالغة الأهمية ومن بينها: «رحلة في قلب نهرو»، و«الصين الشعبية» الذي كان أول كتاب باللغة العربية يُكتب عن الصين، وكان ذلك عام ١٩٥٢، وقد رفضته الرقابة في بادئ الأمر إلى أن وقع المخطوط الأصلي من الكتاب بين يدي عبد الناصر، ففوجئ بالرقابة تتصل به لتخبرونه بموافقة عبد الناصر على نشره كاملًا!

كان الكاتب الكبير محمد عودة نموذجًا فريدًا ودليلا دامغًا على أنه لا يزال هناك متصوفون حقيقيون يعيشون بيننا، فرغم شهرته الواسعة لم يغادر شقته التي اتخذها سكنا منذ سنوات بعيدة رغم أن المصعد لم يكن يعمل بالعقار إلا نادرًا، ويضطر عودة إلى أن يصعد على قدميه إلى الدور الثامن حيث شقته رغم أنه كان قد بلغ من الكبر عتيًا، لكنه لم يجمع من المال ما يجعله يجد سكنًا آخر، بل لم يمتلك سيارة خاصة حتى رحيله.



شـعراء يَتْبِعُهم الثائرون

ولنـا الدنيا هنا.. والآخرة

محمـود درويـش



الجبل المتحرك بالحب والسخرية!

«١»

لو أن أحدًا تبرّع، وتفرغ، وقرر أن يكتب حوارات كامل الشناوي في جلساته الخاصة لصار لدينا تراث هائل من الفكر والفن والسخرية، لكن لسوء حظنا أن تراث كامل الشناوي أغلبه شفاهي، فلم يهتم بتدوين ما يقوله، ولم يحاول أي باحث التنقيب عما جرى في هذه الجلسات التي كانت بمثابة تاريخ موازٍ للتاريخ الرسمي، لكنه تاريخ حقيقي وتأريخي مهم ومختلف ممن حضر، وشهد، وشاهد، ورصد، وفهم، وقرأ، ورأى، وسمع، وعلم، وفسّر، ثم سخر من كل الحكام!

فقد امتلك عمنا كامل الشناوي موهبة أثقل من الهرم الأكبر، وإحساسا أعلى من برج الجزيرة، ومعاني أعمق من البحر الأحمر، وعذوبة أعذب من ماء النهر، وخفة ظل يستظل بها الجميع.

إنه الجبل المتحرك بالحب والسخرية، فكان إذا أحب، أحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره، كره بلا قيد ولا شرط -على حد تعبير عمنا محمود السعدني- ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويجاهد في سبيل أن يدفع بها خطوات إلى الأمام.

كان يقطر فنًا، وأدبًا، وسخرية، وثقافةً، وفكرًا، وشعرًا،

وإنسانية، وكل مَن حضر جلساته يحلف بها، ولا ينسى ما دار فيها، فقد نحت ألفاظًا جديدة، ومعاني مختلفة، وأفكارًا مبتكرة، وعبّر عن مشاعر لم يستطع التعبير عنها غيرُه، فكلماته على الورق كان لها صوت وصدى.

هكذا ظل الشناوي منذ عمل في جريدة «كوكب الشرق» عام ١٩٣٠ وبعدها بخمس سنوات اختاره الدكتور طه حسين ليعمل معه في جريدة «الوادي»، وفي الوقت نفسه عمل في مجلات «آخر ساعة» و«الإثنين» و«المصور» وحصل على لقب «بك» من الملك فاروق، وبعد الثورة صار رئيسًا لتحرير «الأخبار»، ورغم حدته فإن خفة ظله كان تجبّ كل شيء، وفي ذات الوقت لم يكن موقفه السياسي مائعًا بل كان واضحًا، لكنه أيضًا لم يكن منتميًا إلى حزب أو جماعة، فهو حزب مستقلّ، وجماعة ضخمة!

لذلك يقول عنه أنيس منصور: «الشناوي اختار أن يكون عاشقًا للسياسة، وعاشقًا للقضايا الإنسانية، ولم يكن له لون سياسي، وإنما هو صديق الساسة، لهذا كان الثناء ينهال عليه من جميع الاتجاهات، فالجميع يتعامل معه كقيمة عظيمة فوق كل الاتجاهات والميول والأحزاب، والسر أنه معجون بالمصرية المتسمة بالتسامح والمكر وسعة الصدر».

«٢»

كان ميلاده عقب وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل، فسمّاه والده مصطفى كامل تيمُّنًا بالزعيم الوطني، وألحقه بالأزهر، لكنه لم يرتدِ العمامة والجبّة والقفطان سوى خمس سنوات فقط بعدها هرب من حي «الحسين»، وذهب إلى

شارع «عماد الدين» حيث المسارح والسينما، ووجد ضالته في القراءة، ومجالس الأدباء، فدرس الآداب العربية والأجنبية، وصار من الهاوين والغاوين للشعر، وأعلامه، فغنّى من كلماته كبارُ مطربي عصره، من أم كلثوم إلى عبد الوهاب، من فريد الأطرش إلى عبد الحليم حافظ، ومن نجاة إلى شادية لذلك أحزن حين أجد أنه لا أحد يعرف عن كامل الشناوي سوى أنه مؤلف أغنية «لا تكذبي»، كأنه لم يكتب غيرها، وقطعًا أسهمت في ترويج هذا الشعور الأسطورة التي تكمن وراءها!

كان البعض يفكر كثيرًا قبل المرور أمام مكتب كامل الشناوي حتى لا يلمحه، ويُطلق عليه نكاته، فيصير مثارًا للسخرية، ومضربًا للأمثال بين الناس.

فقد كان عمنا كامل الشناوي من أملح ظرفاء عصره، وكانت سخريته تطال الجميع، من الرئيس إلى الخفير، ومقالبه كانت لا تترك أحدًا، فلم يسلَم منها حتى شقيقه المعتز بالله الشناوي الذي حين تخرج محاميًا أعدت له الأسرة لافتة ضخمة كُتب فوقها «المحامي أمام المحاكم الشرعية» فتسلل كامل ليلا ليزيل كلمة «أمام» ويكتب بدلا منها «وراء» وظلت اللافتة أيامًا قبل أن ينتبه المعتز لما جرى فيها، فذهب يشكو كامل أخاه إلى والده الصارم والقاضي الشرعي، لكنه نجا من العقاب عندما فسر تصرفه بأن محل إقامتهم كان بالفعل خلف المحكمة الشرعية وليس أمامها!

وبعدما استقر الأب في القاهرة نائبًا لرئيس المحكمة الشرعية العليا، واختار لأسرته مسكنًا من طابقين في منطقة الأعيان بالسيدة زينب في جنينة ياميش، مخصّصًا غرفة في الطابق الأسفل لابنه الأكبر كامل للتفرغ للدراسة الثانوية بالأزهر، وكان للحجرة

باب يفضي إلى الشارع تأتي منه شلة الأنس ومن بينهم محمود المليجي وزكي طليمات وفتحي رضوان وغيرهم من نجوم الفن والسياسة، وفي أحد الأيام دخل والده الغرفة فوجده يلعب الورق مع أصدقائه، وجُنّ جنون القاضي الشرعي، وصرخ بأعلى صوته: «بتلعبوا قمار.. وفي بيتي؟!!» وارتجّ كامل للمفاجأة لكنه سارع، قائلا: «أبدا يا بابا.. إحنا بنلعب بوكر»!

فخفت صوت الأب، وقال: «أوعى يا ابني يكون قمار».. فقال كامل: «والله العظيم بوكر يا بابا»!!

«٣»

سأل المرحوم تقلا، مؤسس جريدة «الأهرام»، العم كامل الشناوي عما إذا كان له أصدقاء من الوزراء، فأجابه كامل الشناوي بعفوية: «إنني أسهر كل ليلة مع محمد محمود باشا»!

فخبط تقلا باشا كفًا بكف، فأمامه صحفي يصادق رئيس الوزراء، ثم يكتب في جريدته شعرًا!

فصرخ تقلا في كامل وشرح له أن هذا هو أهم مصدر صحفي في مصر، ويجب أن يكون ذكيا وقادرا على التقاط الأخبار التي تُقال أمامه، وبالفعل ذهب كامل وحصل على خبطة صحفية كبرى لـ«الأهرام»، وأدرك محمد محمود باشا أن مَن سرّب الخبر هو كامل الشناوي فقرر أن يلقنه درسًا لم ينسه! فذات مساء وفي أثناء جلوس كامل بصحبة رئيس الوزراء سمعه يقول: «إن جوبلز وزير الدعاية في حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرًّا، ونزل في فندق سميراميس»، فطار كامل ليبلغ تقلا بما جرى، لكن مؤسس «الأهرام» تشكك في المعلومة، فبحث وتقصّى وتحرّى

حتى أدرك أنه فخ نصبه رئيس الوزراء ليصطاد كامل الشناوي!

ربما هذه المرة الوحيدة التي صار فيها الشناوي صيدًا، فهو دائمًا يلعب دور الصياد، أينما ذهب أو حل، لكنه حين حلل نفسه بالأرقام من واحد لعشرة أعطى نفسه في الشجاعة ٦، والصدق ٨، والحب ١٠، والغيرة ٧، والغضب ٢، والأناقة ١، والشكل صفر!

وحين سألته الإعلامية آمال فهمي: ما الشيء الوحيد الذي جاملك فيه الزمن؟ فأجاب: «سواد شعري»!

وقبل رحيله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ رثى نفسه قائلا:

إذن حان حيني وانتهى العمر

إنه عزيز على نفسي فراق حياتيا

أمثوايَ في لَحْدٍ من الأرض ضيق

وما كنتُ بالدنيا العريضة راضيًا؟



الاستثنائي!

«١»

«ما دام فينا رجل له كل هذه اللماحية والذكاء والوعي والعبث والمرح والقدرة على التلخيص والتواصل، وما دام قادرًا على إبداع رسوم كهذه، فلا بد أن الحياة ما زال فيها ما يستحق أن نعيشه»!

هكذا كان عمنا صلاح جاهين، مثلما وصفه عمنا محيي الدين اللباد.

جاهين كان رقمًا قياسيًّا في كل شيء، في الكاريكاتير، والشِّعر، والسيناريو، والمقال، والكتابة الساخرة، وصناعة الأفلام علاوة على قدرته الخارقة على اكتشاف أصحاب المواهب أو تلميعهم وتغيير مسارهم، وجعلهم يتصدرون المشهد.

رغم قدرات جاهين الاستثنائية في صناعة الابتسامة على وجوه الناس فإنه أيضًا كان بمثابة الملهِم؛ فقد كان الشاعر الكبير أمل دنقل في رحلة مرضه لا يتناول الدواء إلا وهو يسمع «رباعيات» صلاح جاهين.

جاهين ترك بصمة بارزة في كل مَن عرفه، وكان بمثابة أكاديمية فنون تسير على قدمين، فقد تبنَّى عددًا هائلا من المواهب، لعل أشهرها سعاد حسني ونيلي وأحمد زكي، لكن إنسانية جاهين غلبت فنَّه، فذات يوم حدث خلاف بين أحمد زكي وزوجته، ترتَّب عليه أن تركت الزوجة البيت، ولم تفلح

محاولات الصلح بينهما، وفي ذات التوقيت كان جاهين قد خرج لتوّه من عملية جراحية في القلب، لكنه بمجرد أن خرج من المستشفى اتصل بأحمد زكي، وقال له: «لو فاضي تعالى عشان عايز أروح إسكندرية»، وبالفعل اتجها إلى الإسكندرية وبمجرد أن وصلا أخرج جاهين ورقة من جيبه فيها عنوان، وظل يسأل عنه حتى وصلا إلى العنوان المطلوب، وبمجرد أن طرق جاهين الباب وجد زكي نفسَه يقف أمام حماه، وأصلح صلاح بين أحمد زكي وزوجته، وأصر على أن يعود إلى القاهرة وحده في نفس اليوم.

«٢»

انطلق في طريق النجاح كالشهاب، لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة، لكن شِعْره الشعبي بشَّر بالثورة قبل أن توجد، وزكّاه أنه عُرِف ببُعده عن الأحزاب، وهو من ناحيته وبتلقائية وإخلاص، كرَّس شِعره للثورة، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعري في أجمل صوره، ثم سرعان ما يترجَم إلى غناء تردده الإذاعة والتليفزيون... تلك هى الصورة التي رسمها نجيب محفوظ برؤيته الثاقبة في رواية «قشتمر» لعلاقة صلاح جاهين أو «طاهر عبيد» بالثورة ورجالها، تلك الصورة التي التقطها محفوظ لا تختلف كثيرًا عن الواقع لأن جاهين أحبَّ جمال عبد الناصر قبل أن يلتقيا، بل كانت أشعاره التي كتبها دعوة صريحة للثورة.

وحين قامت الثورة كان الثلاثي «عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وجاهين» يلتقون في بداية شهر يونيو من كل عام

لحضير أغنية جديدة، وظل الثلاثي على العهد حتى مرض والد جاهين بالسرطان، ولم يتحمل صلاح الخبر واختفى تمامًا وحاولت أسرته الوصول إليه دون جدوى لمدة عشرة أيام، بعدها أقسمت بهيجة «أخته» أن «حليم هو اللي مخبيه»، فذهبتْ إلى بيته وقالت له: «عاوزين صلاح ضروري، أبوه تعبان ومحتاج يشوفه وانت مخبيه عندك»، فقال حليم: «والله هوَّ ما عندي ولا حتى شفته.. ادخلي دوَّري عليه، وعمومًا أنا هاجيبه لحدّ عندك»، وبالفعل أحضره في اليوم التالي بعد أن نشر إعلانًا في «الأهرام» يقول فيه: «ارجع يا صلاح.. أهلك بيدوَّروا عليك».

عاد جاهين إلى بيته!

حين اعتلى الرئيس السادات كرسي الحكم في مصر، ظن أن جاهين سوف يناصره، إلا أنه فوجئ بأن «مافيش بينهم كيميا»، فقد كان صلاح لا يحب السادات بل كان يعانده بكتابة قصيدة جديدة في «الأهرام» كل عام في ذكرى وفاة عبد الناصر، مما أغضب السادات بشدة وجعله يرسل إليه واحدًا من رجال الحكم كان معروفًا بلباقته ليبلغه رسالة تقول: «الرئيس بيقولك انت مابتكتبش عنه ليه؟»، وكان رد جاهين: «والله أنا مش ترزي»!

«٣»

أنا من جيل «بوجي وطمطم» و«أبريق الشاي»، الجيل الذي تربَّى على أن رمضان لا يأتي دون أغاني صلاح جاهين، وحفظ «صباح الخير يا مولاتي»، وكان يردد «المصريين أهمَّه»، الجيل الذي كان -ولا يزال- يذهب لمشاهدة «الليلة الكبيرة»

ولا يعرف أن صاحبها انتهى من كتابتها عام ١٩٥٧م، ليشاهدها الأطفال مع افتتاح التليفزيون في يوليو ١٩٦٠م، وأنها اشتركت في مسابقة أوروبا الشرقية في نفس العام وحصدت كل الجوائز المخصصة لأعمال الأطفال، لكن أكبر جائزة حصل عليها جاهين ورفاقه عن «الليلة الكبيرة» هي أنها ظلت على مدار خمسين عامًا أكثر عمل درامي غنائي تعلقت به قلوب الأطفال في تاريخ مسرح العرائس، فكلنا ما زال يحفظ في ذاكرته، رغم أعباء الحياة، «الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة»، بل إن بعضنا يحتفظ بهذا الأوبريت الفذ على الكمبيوتر ليشاهده مع أبنائه، ولكن الغريب في هذا العمل أن جاهين نفسه كان يرى أن «الليلة الكبيرة» خرجت أفضل مما توقّع وعاشت أكثر مما خطط!

وعندما استقر في القاهرة جمعته الصدفة بالفنان سيد مكاوي لتنشأ بينهما صداقة قلّما تتكرر؛ فقد كان جاهين يصف علاقته بمكاوي بـ«العسل والطحينة»؛ فكانا يذهبان إلى الموالد في كل مكان وعلى رأسها مولد «السيدة زينب»، ويجلسان معًا بالساعات الطويلة في شقة جاهين في ميدان لاظوغلي لتجهيز «الليلة الكبيرة» وغيرها من الأعمال التي جمعتهما، ولكن أطرف ما في هذه اللقاءات أنهما في إحدى المرات «كانوا بيهزروا وبيضحكوا»، فألفّا ولحّنا الأغنية الشهيرة: «يا صهبجية.. إيه يا لا للّي».

لذلك عندما سألته مذيعة: لو هتعيش في جزيرة لوحدك ومسموح لك تاخد شخص واحد معاك.. تاخد مين؟ قال: سيد مكاوي.

في الوقت الذي كان يحتفل فيه العلماء باكتشاف كوكب جديد في المجموعة الشمسية هو كوكب بلوتو، كانت صرخات سيدة تدعى أمينة تنطلق في كل مكان داخل بيت من أربعة أدوار يملكه الصحفي أحمد حلمي في شارع «جميل باشا» بشبرا، تلك الصرخات التي كان سببها الولادة المتعثرة بشدة -كأن المولود يرفض أن يخرج إلى الدنيا- التي جعلت المولود لا يصرخ فور ولادته؛ ليظن الجميع أنه قد وُلد ميتًا!

لكن في هذه اللحظات صرخ المولود «محمد صلاح الدين» بعد ولادة متعثرة، وأكد علماء النفس أن تلك اللحظات تركت آثارها على شخصيته وتسببت له في عدم استقرار الحالة المزاجية، فجعلته عندما يفرح يكاد يطير وعندما يحزن يصل إلى درجة الاكتئاب، إنها علامات النبوغ التي اتصف بها صلاح جاهين.

ظلت الحالة المزاجية لجاهين تتأرجح حتى ليلة ١٦ من أبريل عام ١٩٨٦... ليلة الغارة الجوية الأمريكية على ليبيا والتي سقط فيها المدنيون، دخل جاهين غيبوبة الموت التي كانت كل الأحداث المحيطة به تدفعه إليها؛ فتلاميذه الذين صنعهم تطاولوا عليه، والمسؤولون عن المسرح القومي سحبوا مسرحيته «إيزيس» في الوقت الذي كانت فيه تحقق أعلى إيرادات في تاريخ القطاع العام، ليضعوا بدلا منها مسرحية «مجنون ليلى» التي لم يشاهدها أحد، ويومها عبّر عن ذلك بكاريكاتير في الصفحة التاسعة بجريدة «الأهرام» ينتقد فيه المسرحية.

ولم تتوقف المصائب عند هذا الحد، بل إنه عندما دقّت الفرحة أبواب قلبه بعد صدور الديوان الأول «الرقص في زحمة المرور» لابنه بهاء تم وأد هذه الفرحة في مهدها، لأنه في هذه الأثناء وقعت أحداث شغب تسببت في حرق ملاهي شارع الهرم فقام كرسام كاريكاتير بالربط بين أحداث الشغب واسم ديوان بهاء، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا من زحمة المرور»، لكنه فوجئ بأن تم حذف اسم بهاء من الكاريكاتير على يد المسؤول عن الديسك المركزي، ويومها ردَّ جاهين على مَن انتقدوه لأنه يروِّج لديوان ابنه قائلا: «والله يا جماعة أنا لو شفت أن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف»، ولكن هذه الواقعة لم تمر مرور الكرام بل تركت أثرًا نفسيًّا بداخله.

رحل جاهين وهو يحلم أن يبني مسرحًا مثل شكسبير يقدم فيه ما يريد دون قيود أو ضغوط، لكنه عاش ومات لا يملك من حطام الدنيا سوى أرصدة في القلوب وليست في البنوك.

رحل جاهين بعد أن زار الكعبة، لتبكي عليه الأرض التي أضحكها قبل البسطاء الذين عشقوه.

رحل صلاح الإنسان، وبقي جاهين المبدع الذي تتردد أغانيه في كل المناسبات من عيد الأم إلى عيد الربيع، وتتصدر رباعياته مبيعات سوق الكتب؛ لتعلم الدنيا بأسرها أنه ما زال يحيا بيننا وتظل وصيته تتناقلها الأجيال:

أوصيك يا ابني بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإنْ جيت في بالك.. اشتري عُقد فُلّ
لأي سَمْرَا.. وقبري إوْعَك تزور

فارس هذا الزمان الوحيد

«١»

في عـام ١٩٤٠ وقـف عـلي ماهـر باشـا رئيـس الـوزراء، أمـام البرلمـان، وأعلـن أن مـصر سـوف تقـوم بتقديـم المعونـة لبريطانيـا!

في هـذا العـام وُلـد الشـاعر الفـذّ أمـل دنقـل، لكـن حـين رحـل قبـل أن يُكمـل عامـه الثالـث والأربعـين- كانـت مـصر تنتظـر حظهـا مـن المعونـة التـي تـأتي لهـا سـنويًا مـن أمريـكا!

لكـن ظـل البعض يردد ما قاله أمل:

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

ولا أحـد يتصـور أن هـذه القصيـدة الأشـهر في تاريـخ أمـل دنقـل قـد كتبهـا في نوفمـبر مـن عـام ١٩٧٦، أي قبـل أن يعلـن الرئيـس السـادات عـن نيتـه الذهـاب إلى إسرائيـل، كأنـه كان يقـرأ الطالـع السـياسي للرئيـس، لذلـك لـو أن هنـاك شـاعرًا واحـدًا ملهَـمًا لـكان -بـلا جـدال أو نقـاش- أمـل دنقـل.

هـو معجزة لدرجة أنـك تعجز عن وصفه!

فلـو حصـل عـلى نصـف حقـه فقـط ربمـا لظلـت وسـائل الإعـلام تتحـدث عنـه ليـل نهـار بـلا انقطـاع، فمـروره عـلى الدنيـا دليـل أن عـصر المعجـزات لم ينتـهِ.

فـلا يحتـاج إلى لقـب أو تعريـف أو تقديـم، ولا يمكـن أن تضـع لـه منطـق الأنـاس العاديـين فهـو اسـتثناء منـذ خلقـه اللـه، ولا

يجوز أن تضع معايير لتقييمه، فهو حالة فريدة يجب دراستها بشكل منفرد.

فقد ظل أمل دائمًا يرى ما لا يراه سواه، ويحلم بالمستحيل لكنه لا يحلم لنفسه، فحلمه مرتبط بوطنه، لذلك حين رحل نعاه الفذ يوسف إدريس قائلا: «لن أطلب منكم الوقوف دقيقة حدادًا، فنحن إذا وقفنا حدادًا، سيكون الحداد على عصر طويل قادم، حدادا على العصر الذي سيمضي حتى يشبّ فيه رجال لهم شيم الرجال الذين كان يراهم أمل دنقل، وكرم الرجال الذين كان يحلم بهم أمل دنقل، وشرف ونبل وإنسانية وشجاعة ورقة الرجال الذين استشهد أمل دنقل وهو يراهم، ويحلم برؤيتهم».

«٢»

«هو فوضوي يحكمه المنطق، بسيط في تركيبة شديدة، صريح وخفيّ في آن واحد، انفعالي متطرف في جرأة ووضوح، وكتوم لا تدرك ما في داخله أبدًا.

يملأ الأماكن ضجيجًا، وصخبًا، وسخرية، وضحكا، ومزاحًا. صامت إلى حد الشرود يفكر مرتين، وثلاثًا في ردود أفعاله وأفعال الآخرين، حزين حزنًا لا ينتهي.

استعراضيٌ يتيه بنفسه في كبرياء لافت للأنظار. بسيط بساطة طبيعية يخجل معها إذا أطريته وأطريت شعره، وربما يحتد على مديحك خوفًا من اكتشاف منطقة الخجل فيه.

صخريٌ شديد الصلابة، لا يخشى شيئًا ولا يعرف الخوف أبدا، لكن من السهل إيلام قلبه.

صعيدي محافظ، عنيد لا يتزحزح عما في رأسه، وقضيته دائمًا هي الحرية، ومشواره الدائم يبدأ بالخروج.

عاشق للحياة، مقاوم عنيد، يحلم بالمستقبل والغد الأجمل، ولا يحب منطقة الوسط، ولا ينتمي إلى المناطق الرمادية، ويمقت الحلول الوسط، إنه يتلف كل الألوان ليظل الأبيض والأسود وحدهما في حياته. هارب دائمًا من كل مناطق الحياد التي تقتله».

هذا هو أمل دنقل كما عرفَتْه ورأتْه ووصفتْه أرملته المبدعة البديعة عبلة الرويني أقرب الأحياء إلى قلبه، فأمل حالة خاصة، ولون إبداعي فريد، وشخصية يصعب وصفها أو تكرارها.

«٣»

فقدَ أمل كثيرين في رحلة حياته القصيرة، في السابعة عرف أمل فَقْدَ الأخت، وفي سن العاشرة عرف فَقْدَ الأب، وقبل أن يبلغ السادسة عشرة -في عام ١٩٥٦- تدرب أمل دنقل على حمل السلاح!

وقتها أعلنت المدرسة أنها ستقوم بالتعاون مع الجيش بتدريب الطلاب على السلاح حتى يستطيعوا الاشتراك في المعركة ضد العدوان الثلاثي على بورسعيد الباسلة.

فسارع أمل دنقل بالاشتراك في التدريب في «حوش المدرسة»، وبالفعل ظل التدريب قائمًا عدة أيام حتى أجاد التعامل مع السلاح، لكن بعد انتهاء فترة التدريب تم إبلاغه بأنه سيعمل في الدفاع المدني، فطغى الحزن عليه، وشعر أنه بحاجة ماسة إلى أن يعبِّر عن انفعالاته، وأن لديه ما يقوله، فوجد نفسه

يكتب أول قصيدة في حياته، ليكتشف أن بذرة الشُعر تعيش داخله، وقرر في هذه اللحظة أن يحارب بالقصيدة.

في هذه الأثناء كان أمل ما زال طالبًا في المدرسة الثانوية، وفجأة هبط إلى فصله مدرِّس حضر لتوِّه من القاهرة، وقال: «أنا اسمي توفيق حنًا، وهادرِّس لكم فرنساوي».

كان توفيق حنًا بمثابة نقطة التحول الأهم في حياة أمل دنقل، فقد كان يحكي له عن القاهرة، وعن كبار الأدباء والمثقفين، وكان ذلك عالَـمًا مجهولا لتلميذ في ثانوي.

وتفتَّح وعي أمل وحصل على الثانوية، وترك المدرسة، وذهب إلى جامعة القاهرة -بصحبة صديق عمره عبد الرحمن الأبنودي- وحينذاك كانت القاهرة حافلة بكل الأنشطة السياسية والثقافية، فنسيَا في صخب القاهرة أنهما طالبَين في الجامعة حين شغلتهما الثقافة عن الدراسة.

وعادَا إلى قنا للتفرغ للشعر والقراءة، وعمل الأبنودي في المحكمة ككاتب جلسة، في حين تسلم أمل عمله كمُحضَر في المحكمة -وكان من مهام وظيفته أن يقوم بتنفيذ أمر المحكمة بالحجز على ممتلكات الناس- لكنهما استقالا بعد أن تحملا كمًا هائلا من السخافات طوال فترة عملهما في هذه الوظيفة ثقيلة الظل.

وعاد الاثنان إلى رشدهما ورجعا إلى القاهرة، وظلا يناضلان فيها حتى صار كلاهما بمثابة معجزة شعرية كبرى، وصار لكلٍّ منهما مدرسة لها مريدون من المحيط إلى الخليج، أحدهما صار من علامات الشُعر العامِّي، والآخر صار يُدرِّس شعره في أقسام اللغة العربية لطلاب الجامعات.

لكن الأهم أنهما ظلا صديقين حتى الرمق الأخير في حياة

أمل دنقل، لكن المدهش أن أمل في هذا اللقاء قبل الأخير قال للخال: «أنا سمعت لك غنوة كنت عاملها لمحمد قنديل في عبد الربيع وماسمعتهاش تاني، أنا عايز الغنوة دي دلوقتي».

فتعجب الخال وسأله: «اسمها إيه؟»، فقال: «ناعسة».

الغريب أن الأبنودي لم يتذكر الأغنية مطلقًا، وسأل عنها كل الملحنين الذين تعاون معهم، حتى وجدها لدى حلمي أمين الموجي، وكانت تائهة وسط الشرائط، وظل يبحث عنها حتى وجدها.

وذهب الأبنودي لأمل، ليسمع الأغنية التي طلبها، وكانت تقول:

ويا ناعسة لا لا.. لا لا

خِلْصِت معايا القِوَالة

والسهم اللي رماني

قاتلني لا محالة!!

كأن أمل كان يقرأ نفسه في هذه الغنوة، فالسهم قد أصابه، ولا محالة.



الشّعر ذاته

«١»

في ١٦ يونيو ٢٠١١ كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها الخال وأجلس معه.

يومها ذهبت إليه في بيته في الضبعية في الإسماعيلية بتكليف من الأستاذ إبراهيم عيسى لأحصل منه على أحدث قصيدة كتبها لننشرها في جريدة «التحرير» في الأعداد الأولى.

القصيدة كانت «لسّه النظام ماسقطش»، عنوانها كان لافتًا، فلم يكن وقتها بعد شهور قليلة من ثورة يناير قد التفت أحد إلى أن النظام القائم هو امتداد للنظام السابق الذي ثار الشعب عليه، لذلك أمسكت بالورق الذي سطر عليه الخال قصيدته لأقرأ ما فيه لكنه أمسك الورق من يدي، وأعاده إلى المنضدة التي أمامه مقلوبًا!

كان هدفه أن لا أقرأ أمامه، ثم قال لي: «اقرأ لما تمشي، وابقى كلمني قول لي رأيك».

اندهشتُ لكني التزمتُ بما قاله الخال، فقد كنت أحمل في ذهني طوال طريقي إليه كل ما قيل عنه، من ثناء عظيم، ونقد حاد.

لكن أكثر ما جال بخاطري هو ما كتبه الأديب خيري شلبي عنه حين قال: «الأبنودي يوضَع في كفة، وجميع شعراء جيله -فصحى وعامية على السواء- في كفة... حقًّا إن كل شعراء جيله

على درجة كبيرة من الموهبة، أما هو فإنه نَفَسٌ شِعريٌّ خاص، تيار كامل، مدرسة، لا أقول إنه موهوب بل أقول إنه الشِّعر ذاته، خلقه الله أصلا ليكون شاعرًا».

قرأتُ ما كتبه خيري شلبي عشرات المرات، فكان بدهيًّا أن أذكره، وأتذكره، وأنا في طريقي إلى الإسماعيلية لمقابلة الخال، لذلك كنت أدرك قيمة وأهمية وروعة أن أكون أول من يقرأ واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبنودي، كنت شغوفًا جدًّا لقراءة القصيدة في أسرع وقت ممكن، فانتهيت من قراءتها قبل أن أصل إلى القاهرة، وتوقفت كثيرًا عنده قوله:

الثورة كالزحلفة.. ولكنها ثورة
كإنها لعبة ولعبناها في محاورة..
كسبنا دَوْرة.. وغيرنا كسبوا ميت دَوْرة
وإن جيتوا للجد.. قَدَم الثورة مشلولة
الثورة.. لازِمْها ثورة أقوى من الأولى

المدهش أن الخال كان مهتمًّا أن يسمع رأيي في الملحمة البديعة، وكنت مندهشًا من سعادته برأيي، فهل كان يحتاج إلى رأي شاب لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره في واحدة من أبدع قصائده؟ هل يصل إلى هذه الدرجة من التواضع؟ هل مَن كان يسمع رأي صلاح جاهين وفؤاد حداد وأمل دنقل ونزار قباني ومحمود درويش يمكن أن يسمع رأي أحد بعد رحيلهم؟!

الأسئلة لم تنتهِ، لكنها بدأت.

«٢»

وتعـددت اللقـاءات بينـي وبـين الخـال، وصـار بيننـا تواصـل دائـم، واتصـال شـبه يومـي، وتأكـدت بعـد أن توثقـتْ علاقتـي به أنـه شـديد الخجـل حـين يسـمع مَـن يُثنـي عليـه، وأنـه حـين ينتهـي مـن كتابـة قصيـدة جديـدة ينتظـر آراء العـوام فيهـا قبـل آراء المتخصصـين، وينُصـت حـين يسـمع هـذه الآراء بصـورة تدعـو إلى الحـيرة والدهشـة.

لكنه الإخلاص وحده.

فهـو حـين يكتـب جديـدًا لا يعتمـد عـلى رصيـده الضخـم في قلـوب محبيـه، بـل إنـه يريـد أن يعيـد اكتشـاف نفسـه وموهبتـه الفـذة مـع كل كلمـة يكتبهـا، وهـذه هـي القيمـة الحقيقيـة لعبـد الرحمـن الأبنـودي ذلـك المَعين الـذي لا ينضـب، رغـم أن أمثالـه مـن نجـوم الشِّـعر يكتفـون بمـا قدمـوه، وهـو بالفعـل يكفيهـم.

لكـن هـذا هـو عبـد الرحمـن الأبنـودي الـذي أحبَّـه الشـعب المـصري لبسـاطته، قبـل شِـعره، لكنـي عرفـت الخـال عـن قـرب تمـام المعرفـة عـبر «المربعـات» التـي تعـد أكـبر ملحمـة شـعرية لـو نظرنـا إليهـا نظـرة فاحصـة وموسـوعية.

فقـد أرّخـت لعـام كامـل في تاريـخ مـصر، ولم نعهـد مثـل هـذا التأريـخ بطـول التاريـخ وعرضـه، ولم نعـرف تأريخًـا مشـابهًا سـوى تاريـخ الجـبرتي الـذي كتبـه نـثرًا، بينـما كتبـه الخـال شِـعرًا لتوثيـق كل مـا جـرى في مـصر يومًـا بعـد يـوم ولمـدة عـام كامـل، لم يكـن يتصـور الأبنـودي في بدايتـه أنـه يمكـن أن يسـتمر أكـثر مـن ثلاثـة أشـهر -مـن تجربـة اسـتثنائية لا يمكـن تكرارهـا- في كتابـة شـعر

يوميًـا.

لكـن للمربعـات قصـة وتفاصيـل شـاء القـدر أن أكـون شـاهدًا عليهـا.

البدايـة كانـت عندمـا اتصلـتُ بالخـال، أطمـئن عليـه، وأسـأله عـن صحتـه وأحوالـه، ففاجـأني وقـال لي: «أنـا لقيـت نفـسي باكتـب حاجـة كـده عايـزك تسـمعها»، وقـال:

إحنـا ماطردناش مبارك

ولا حطّيناه في سـجن

بُـصّ في الجورنال.. مبارك

نَفسـه.. بس طلع له دقن!!

وصفَّقـتُ للخـال واسـتأذنتُه في نشرهـا في جريـدة «التحريـر»، فوافـق متكرمًـا، واتصلـت بالأسـتاذ إبراهيـم عيـسى الـذي طـار فرحًـا بهـذه الرباعيـة -التـي لم يكـن الخـال قـد أطلـق عليهـا اسـم مربـع- واحتفـى بهـا -كعادتـه في الاحتفـاء بالمبدعـين- في الصفحـة الأولى مـن جريـدة «التحريـر».

وبـدأ الأسـتاذ إبراهيـم يتواصـل مـع الخـال ليكتـب في «التحريـر، واتفقـا عـلى أن يحصـل الخـال عـلى فرصـة لمـدة أسـبوع للتفكـير، للـرد إذا كان يسـتطيع الكتابـة أم لا، لكـن بعـد ثلاثـة أيـام فقـط كان رد الخـال جاهـزًا وحاسـمًا وقـال: «أنـا جاهـز.. أنـا هاكتـب مربعـات.. كل يـوم مربـع».

كان الخـال خـلال يومـين فقـط قـد كتـب عـددًا هائـلا مـن المربعـات. فتذكـرتُ مـا قالـه عنـه خـيري شـلبي «إنـه لا يعـاني مـن الكتابـة ولا يبـذل جهـودًا مضنيـة في الإبـداع إنمـا هـو يمتـاح مـن بـئر ليسـت تنفـد».

«٣»

وبدأت رحلة «المربعات» اليومية، وقرر الخال أن يلاحق الأحداث بشِعره، فعندما كثرت خطابات الرئيس محمد مرسي، وملّت أفعاله كتب يقول:

وعَازْلينّي عن الدنيا
بقيت ماعرفش شيء عنكم
كأني رئيس بلد تانية!!
بقيت باخْطُب بدل ما احْكُم

استمرت المربعات، وصار اتصالي بالخال كل يوم، مرة ومرتين، وأحيانًا ثلاثًا ولم أجد في حياتي أحْرَص من الخال على ما يكتبه، فهو يُراجع ويُدقّق ويُفنّد ويُفكر ويدرس ولا يكلّ ولا يملّ من مراجعة كل شيء بدقة بالغة.

ففي كل يوم يصل «المربع» على الفاكس ثم نقوم بكتابته على الكمبيوتر، ومراجعته ثم إرساله إليه ليتأكد من كل كلمة وحرف وتشكيل موضوع فوق الحروف، ثم بعد ذلك يعيد إرسال المربع مرة أخرى بتعديلاته، وربما تتغير الأحداث في دقائق، فيرسل مربعا آخر، فيمرّ بنفس دائرة العمل.

وكان الخال يرسل المربعات بأكثر من طريقة، فهو يرسل سبعة مربعات كل يوم جمعة، ليتم نشرها على مدار الأسبوع، لكنه كان يقوم بإرسال مربعات أخرى طوال أيام الأسبوع خصوصا أن الأحداث كانت متلاحقة، وقد أراد أن يؤرخها شعرًا. ولعل أكثر المربعات انتشارًا على صفحات التواصل الاجتماعي هو ما قاله بعد ثورة ٣٠ يونيو التي وقف فيها العالم أمام

إرادة الشعب المصري، وحاولت دول كثيرة أن تعيد الإخوان إلى الصورة وإلى الكرسي لكن جاء الرد من الخال قاطعًا بقوله:

لا أمريكاني.. وَلاَ ألماني..

ولا إيراني.. وَلاَ أردوغاني..

ولا قَطَر ولا مِيتْ آل ثاني..

حَيْرجْعُوا (العَرْش) الإخواني!!

صوتُ درويش وسوطُه!

«١»

في ليلـة الخامـس عـشر مـن مايـو عـام ١٩٤٨ انطلـق الرصـاص مـن كل حـدب وصـوب في قريـة «البروة» التـي تقـع شرق عـكا عـلى مسـيرة ٩ كيلومـترات منهـا، ويعيـش بهـا ١٤٦٠ نسـمة.

لم تميـز طلقـات الرصـاص بـين صغـير أو كبـير، ووجـد الطفـل ذو السـنوات السـبع نفسـه يعـدو في اتجـاه أحـراش الزيتـون السـوداء مشـيًا عـلى الأقـدام حينـًا، وزحفـًا عـلى البطـن حينـًا، وبعـد ليلـة مليئـة بالذعـر والعطـش وجـد نفسـه مـع أسرتـه في بلـد اسـمه لبنـان!

الطفـل الـذي سـمع صـوت الرصـاص، وجـرى في الظـلام في الأحـراش، لم يعـد يهـاب المـوت الـذي كان يطـارده في هـذه الليلـة، وظـل هـذا المشـهد محفـورًا في ذاكرتـه، لكنـه لم يجعـل روح اليـأس تتـسرب إلى نفسـه، مثلـما تسربـت إلى مـن نفـوس مَـن قبلـه، بـل صـار حامـلا لشـعلة الأمـل، وحـب الحيـاة، وقـد بـدا ذلـك جليًـا في كل أعمالـه ليكـون بمثابـة موجـة ثوريـة عـلى اليـأس الـذي أصـاب الشـعراء في الوطـن العـربي وتحديـدًا في فلسـطين المحتلـة عقـب نكبـة ١٩٤٨.

كان ذلـك الطفـل الـذي رأى المـوت بعينيـه هـو محمـود درويـش الشـاعر الـذي بعـث بالأمـل، وبـثَّ التفـاؤل، ولم يقنـط، ولم يفـزع، ولم يجـزع حـين تعـرض للنفـي خـارج وطنـه، وحـين أُلقـيَ في

غياهب سجون الاحتلال للمرة الأولى في عام ١٩٦١. ظل كما هو باحثًا عن الأمل وباعثًا له، وخرج ليكتب ديوانه الأول «أوراق الزيتون»، وقال مخاطبًا العدو:

سجِّل.. برأسِ الصفحةِ الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد
ولكني.. إذا ما جعتُ
آكلُ لحمَ مغتصبي
حذارِ.. حذارِ.. من جوعي
ومن غضبي

المدهش أنه رغم روعة وبلاغة إحساس هذه القصيدة، فإن محمود درويش كان يغضب بشدة حين يختزله البعض في هذه القصيدة أو غيرها، خصوصًا أنه كان يعتبرها مجرد بداية لشاب لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، رغم أن هذا الديوان لم يكن ديوانه الأول، فأول ديوان مطبوع له كان يحمل اسم «عصافير بلا أجنحة»، لكن درويش كان يرى أن هذا الديوان لا يستحق الوقوف أمامه!

جرأة غير مسبوقة أن يتجاهل شاعر عمله الأول ويعترف بضعفه، ويعتبره مجرد محاولات لم تنجح، بل إنه لا يذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر، ولا يذكر الحافز المباشر لكتابة «القصيدة الأولى» في حياته الشعرية، لا يذكر سوى أنه حاول في سن مبكرة كتابة قصيدة طويلة عن عودته إلى الوطن، لكنه يقول عنها «أثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار»!

ولكنـي تعرفـت عـلى شـعر محمـود درويـش بالصدفـة حـين دخـل أسـتاذ اللغـة العربيـة إلى فصـل أولى أول يبحـث عـن طالـب يمثـل المدرسـة في مسـابقة إلقـاء الشُّـعر عـلى مسـتوى الإدارة التعليميـة، فوقفـتُ ووقـف زميـل لي، لكنـي لم أدرك معنـى كلمـة إلقـاء التـي قالهـا الأسـتاذ، لذلـك انتظـرتُ حتـى انتهـى زميـلي مـن إلقـاء قصيـدة «النيـل» التـي كنـا ندرسـها في الشـهادة الابتدائيـة، وفعلـت نفـس مـا فعلـه زميـلي وألقيـت نفـس القصيـدة التـي لم أكـن أحفـظ سـواها!

فاختـارني الأسـتاذ لأمثِّـل المدرسـة في المسـابقة التـي لم تفـز بهـا المدرسـة منـذ ١١ عامًـا، واختـار لي الأسـتاذ قصيـدة أخـرى لألقيهـا في المسـابقة، وكانـت هـذه القصيـدة هـي قصيـدة «عـن إنسـان» لمحمـود درويـش، كانـت المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا اسـمه، وكانـت كلـمات القصيـدة بالنسـبة إلى تلميـذ في أولى إعـدادي تحتـاج إلى شرح وتفسـير، وقـد أفـاض الأسـتاذ في شرحهـا حتـى صرت أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، بـل إنني مـا زلـت أحفـظ طريقـة إلقـائي لهـا حتـى الآن.

وفـزتُ بالجائـزة، وحصلـت عـلى شـهادة تقديـر، وشـهادة اسـتثمار قيمتهـا عـشرة جنيهـات، وتعلقـتُ بمحمـود درويـش، وصرتُ أبحـث عـن كل أعمالـه، وقـرأتُ أغلـب أعمالـه قبـل أن أحصـل عـلى الشـهادة الإعداديـة، وصـارت ذائقتـي الشـعرية لا تحتمـل أنصـاف الشـعراء!

ولم يعـد محمـود درويـش بالنسـبة إليَّ مجـرد شـاعر، بـل صـار هـو الشِّـعر ذاتـه لسـنوات، رغـم أني كنـت أقـرأ جاهـين والأبنـودي

ونـزار قبـاني وأمـل دنقـل، بـل إن القـراءة الوحيـدة التـي لا أبـذل فيهـا أي جهـد ولا يصيبنـي فيهـا أي كلـل أو ملـل هـي قـراءة الشـعر، فـأي ديـوان مهـما كـبر حجمـه لا يمكـن أن يسـتغرق منـي أكـثر مـن ليلـة واحـدة في قراءتـه، بـل إن عـددًا كبـيرًا مـن دواويـن الشِّـعر التـي أشـتريها كنـت انتهـي مـن قراءتهـا قبـل أن أصـل إلى البيـت، والفضـل الأول في كل هـذا هـو لمحمـود درويـش، لذلـك كنـت ألقـي أشـعاره في كل مناسـبة، وأحيانًـا كثـيرة دون مناسـبة!

وكـبرت، وكـبر معـى حبـي لـه، فـكان يكفينـي أن أراه ولـو مـن بعيـد، كان يسـعدني سـماع صوتـه مباشرا دون حواجـز، وحـين جـاءت اللحظـة التـي انتظرتهـا طويـلا حـين تـم الإعـلان عـن حضـوره أمسـية شـعرية في معـرض الكتـاب، ذهبـتُ مبكـرًا، ولم أكـن أنتظـر سـوى سـماع صوتـه وهـو يلقـي شـعره، وسـمعته حتـى انتهـت الأمسـية ولم أحـاول الاقـتراب منـه، واكتفيـت برؤيتـي لـه، وعـدت إلى البيـت حامـلا بقيـة أعمالـه التـي لم أكـن قراءتهـا، ولم أتوقـف حتـى الآن عـن قراءتهـا.

«٣»

لا أظن أن الشِّـعر قد عرف شـاعرًا أَشْعَرَ منه!

حـين تقـرأ كـلمات قصائـده تشـعر أنـه لم يكـن أبـدًا واحـدًا مـن الذيـن يجلسـون عـلى مكاتبهـم ويرتِّبـون دفاترهـم لكتابـة القصائـد، فأنـت تشـعر دون أن تعرفـه بـأن قصائـده وُلـدت في سـاحات المعـارك، وداخـل الزنازيـن، وعـلى المقاهـي في بـلاد المنفـى.

فقـد عـاش طيلـة حياتـه يؤمـن بـأن قـدره أن يكتـب قصائـده فـوق الدبابـات، ولم يـرضَ لنفسـه يومًـا أن يجلـس -في أثنـاء المعـارك-

مع الخائفين في الخنادق، لذلك ظل «محمودا» بين الناس، وله «دراويش» من المحيط إلى الخليج يرون أن بإمكان أشعاره أن تغيّر مجرى التاريخ.

قصائده سكنت القلوب، وتركت آثارها في العقول، وصارت كلماته عناوين رئيسية لمن أراد أن يدرك معاني الوطنية، فقد اختار أن يكون الحبر وقودًا للحرب، وأن يكون صوتًا للمقاومة، وسوطًا مسلطًا على أعدائها، وأن تكون قصائده بمثابة ثورة ضد كل قيد، فمنذ ميلاده الشعري قرر أن يكتب القصيدة المقاومة التي تقف شامخة في ساحات المعارك، وقد بدا ذلك واضحًا في كل قصائده، وتحديدا في قصيدته «أيها المارُّون» التي زلزلت الأرض من تحت أقدام سفاحي تل أبيب، وجعلتهم يشعرون بأن القصيدة يمكن أن تكون كلماتها أكثر خطرًا من الرصاص، وسنظل نردد أشعاره مع كل هجمة همجية من العدو الصهيوني على أرضنا ونقول:

أيها المارُّون بين الكلمات العابرة
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
وَلْتَمُوتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا
فَلَنَا في أرضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأوَّل
ولنا الحاضرُ، والحاضر، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا.. والآخرة
فاخرجوا من أرضنا



للكبار فقط!

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

جلال عامر



جحا القرن العشرين

«١»

«كانت جنازتي كبيرة ومهولة!

وقد توقعت -قبل وفاتي- أن تكون جنازتي كبيرة ومهولة بفضل عدد الدائنين الذين سيمشون ورائي أملًا في معجزة تعيدني إلى الحياة حتى يستأنفوا مطالبتي بفلوسهم»!

هكذا وصف العم جليل البندراي جنازته.

وأضاف: «الصحف اعتادت أن تصف الجنازات وصفًا واحدًا حزينًا لا يتغير فلماذا لا أسعِد الناس بوصف ضاحك للجنازة؟ هذا هو الجديد وأنا أحب الجديد.. الجنازة فيها إفيهات تفطّس م الضحك.. فليه دايمًا نبصّ لها من زاوية الدموع؟ وما ذنب القارئ حتى أزعجه عَ الصبح بكلام حزين ومقرف، أنا الذي تعودت أن أسليه كل صباح وأحاول أن أرسم ابتسامة على فمه، أليس من الأفضل أن أودع القارئ بابتسامة؟!».

ربما لا تكون سمعت عنه من قبل، وربما أيضًا سمعت عنه لكن لم تقرأ له، فكتبه لم تصل إلينا، ومقالاته التي كان يكتبها يوميًا في الصفحة الثامنة بجريدة «الأخبار» لم يتم جمعها في كتاب حتى الآن، فقد كان أول من كتب «التويتة»، نسبة إلى «تويتر».

فأفكاره مركّزة، وأهدافه واضحة، وعباراته مكثفة، وكلماته قليلة، وجُمَله قصيرة لكن لسانه كان طويلا، وطويلا جدًّا!

لكنه رحل قبل قرابة نصف قرن بعد أن ملأ الدنيا ضجيجا، وضحكا، وأفلاما، وأوصافا، وشتائم، لدرجة أن «تحية كاريوكا» أطلقت عليه لقب «جليل الأدب.. وإحنا بندارى عليه»، وحلفت ذات مرة أن تضربه بالشبشب، وتعقبته في منزل إحدى الفنانات وجلست تنتظر حضوره ودخل جليل فنطق بشتيمتين فاستغرقت بعدهما تحية في الضحك!

«٢»

كانت الشتائم لازمة في لسانه، أو كانت أشبه بفاصلة أو «شَوْلة» بين عبارات كلامه العادي، وكان يُغضب الناس منه بالشتائم ثم يعتذر إليهم بالشتائم أيضًا -على حد تعبير عمنا أحمد رجب- الذي شهد وشاهد مئات الوقائع مع العم جليل، ومنها حين أقسم فريد شوقي أنه سيرمي جليل من البلكونة وسيُطبق ضلوعه، وذلك بعد أن كتب جليل أن هدى سلطان تضرب وحش الشاشة بالأطباق، الأمر الذي يهز صورة وحش الشاشة عند جمهور الترسو.

وذهب أحمد رجب مع جلال معوض ليحاولا تهدئة فريد شوقي ولكنه أصر على ضرب جليل عند حضوره!

ولم يكن أمامهما إلا أن يسرعا إلى باب العمارة حتى ينصرفا بجليل عند حضوره بعيدًا عن لكمات وحش الشاشة، ولكن جليل أصر على الصعود، ودخل على فريد شوقى الذي نظر إليه والشرر يتطاير من عينيه وإذا بجليل ينطق بكلمة واحدة فطس بعدها وحش الشاشة من الضحك!

ورفع الفنانون والفنانات ٨٠ قضية ضده انتهت جميعًا

الصلح بعد أن اعتذر إليهم بشتائمه!

لقد انتهى الفنانون والفنانات إلى حقيقة مؤكدة وهي أن جليل البنداري هو صاحب أطول لسان وأطيب قلب!

ولعل أبرز دليل على طيبة قلبه هو أن الأغنية الأقرب إلى قلبه كانت أغنية «ماما زمانها جاية»، لدرجة أنه طلب من صديقه الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يعلّمه عزف هذه الأغنية على البيانو، وتعلمها بالفعل، وظل يعزفها كل يوم حتى حجزت الضرائب على كل ما يملكه، وصادرت البيانو!

يومها كان يتحسس البيانو كما يتحسس طفلٌ لعبةً ستُنتزع منه.

«٣»

عمنا جليل البنداري كان كاتبًا وصحفيًا وناقدًا وسيناريستًا، وله عدد كبير من الأفلام التي ما زلنا نشاهدها حتى الآن، ونضحك معها وعليها منها: «العتبة الخضراء»، و«الآنسة حنفي»، و«بمبة كشر»، و«موعد مع إبليس»، و«شفيقة القبطية»، وهو أول مَن أطلق على عبد الحليم حافظ لقب «العندليب الأسمر»، وهو أيضًا مَن أطلق على أغنية «أنت عمري» التي غنّتها سيدة الغناء أم كلثوم ولحّنها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب «لقاء السحاب».

فكلماته ما زالت حية بيننا نذكرها، ونتذكرها، ونرددها لكن دون أن نبحث أو نعرف صاحبها. ورغم قسوة التجاهل وعدم الاعتراف بأصحاب الفضل والسبق فإن هذه هي قيمة المبدع الذي تتجاوز أفكاره ورؤيته حدود الزمان والمكان وتظل عالقة

بالأذهان أبد الدهر.

فالمبدع يظلّ حيًّا ما دمنا نردد أفكاره وكلامه، فهذا يكفيه، فهو يدرك أن وجود أفكاره أهم كثيرًا من وجود اسمه، لكن وجود اسمه مهمّ لنا ولأجيال لا نريد لها أن تفقد الذاكرة، والذكرى.

لكن المدهش أن جليل البندارى قبل وفاته كان يهوى جلسات تحضير الأرواح، وذات مرة لجأ إلى محضر أرواح اسمه الحاج طلبة، ليقوم بتحضير الست شوق البولاقية التي هام بها نابليون بونابرت غرامًا خلال وجوده في القاهرة أيام الحملة الفرنسية. كان جليل بصدد كتابة أوبريت غنائي يحكي غرام نابليون بفاتنة بولاق، ورأى أن تحضير روحها سوف يمكّنه من كتابة الأوبريت بتفاصيل تاريخية صحيحة.

ولأمر ما تغيّب الوسيط فاختار الحاج طلبة وسيطا آخر، وراح يجري طقوسه في الغرفة المعتمة، وما لبث أن سرت همهمات غامضة قال بعدها الحاج طلبة: السلام عليكم، وردّت روح شوق البولاقية السلام، وقدمت نفسها قائلة: أنا شوق بنت عديلة وكانوا يدللوني باسم شواشي، بينما كان نابليون يناديني «شير.. شو».

وقالت شوق البولاقية إنها تعرفت على نابليون في بيت مندور الكحكاوي، وأنه أُعجب بها إعجابًا شديدًا. وروت شوق تفاصيل كثيرة عن غرام نابليون بها، لكنها صُدمت صدمة فظيعة عندما اكتشفت أن نابليون كان يريد أن يستولى على مصاغها خصوصًا خلخالها الذهبي!

وكان جليل يكتب كل هذه التفاصيل، حتى اكتشف أن الوسيط الذي قال كل هذا الكلام هو عمنا أحمد رجب!

أحمد رجب كان أقرب الأحياء إلى قلب عمنا جليل البنداري، وهو أيضًا المصدر الأول، وربما الأوحد في كل معلومة عن حياته الخاصة، لذلك تحدثت معه قبل أن أكتب عن العم جليل.

كان الأستاذ أحمد يعتبر جليل البنداري والده، وكان يُقبّل يده كلما رآه رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»!



ضحكات عفيفي الصارخة!

«١»

«عزيزي القارئ...

يؤسفني أن أخطرك بشيء قد يحزنك بعض الشيء، وذلك بأنني قد توفيت، وأنا طبعا لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة (دى صعبة شوية) وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تُنشر بعد وفاتي، وذلك لاعتقادي بأن الموت شيء خاص لا يستدعي إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات، والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالي العزاء.

وإذا أحزنَتْك هذه الكلمات، فلا مانع من أن تحزن بعض الشيء، ولكن أرجو أن لا تحزن كثيراً».

هكذا نعى الساخر الأعظم محمد عفيفي نفسه، وأصر أن تُنشر هذه الوصية بعد وفاته في جريدة «الأهرام»، ونُشرت بالفعل في ٥ ديسمبر عام ١٩٨١ بعد شهرين فقط من وصول حسني مبارك لكرسي السلطة خلفًا للرئيس السادات.

لكن قبل ٦١ عامًا، وتحديدًا في فبراير ١٩٢٢ كانت الحياة مختلفة.

وقتذاك عاد اللنبي من بريطانيا وحيَّاه الكثيرون في طريقه إلى قصر الدوبارة، وذهب في نفس اليوم إلى الملك فؤاد وسلمه تصريح ٢٨ فبراير، وفيه إلغاء الحماية، وإعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وأعلن الملك فؤاد أنه صار ملكًا بعد أن كان سلطانًا، وتولى عبد الخالق ثروت باشا الوزارة وجمع مع رئاسة الوزارة وزارتي الداخلية والخارجية. وتم إغلاق جريدة «الأهالي» وتعطيل جريدة «الأهرام» ثلاثة أيام، و«الأمة» ثلاثة أشهر، والتنبيه على الصحف عدم ذكر اسم سعد زغلول وزملائه في المنفى.

.. وأسس سيد درويش مسرحًا له في الإسكندرية، وكانت مسرحية «شهرزاد» أول مسرحية يتم عرضها عليه.

.. ونجيب محفوظ كان في طريقه إلى المدرسة الابتدائية، وأحمد مظهر أتمّ عامه الخامس.

.. وقبل عام واحد فقط من ميلاد أول دستور عرفته مصر في تاريخها، وقبل ست سنوات من ميلاد محمود السعدني وأحمد رجب.

وسط هذه الأجواء وُلد محمد عفيفي في يوم السبت ٢٥ من فبراير عام ١٩٢٢ في قرية «الزوامل» بمحافظة الشرقية.

نشأ في أجواء القرية المصرية، وتدرج في صفوف التعليم حتى حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٤٣، ثم حصل على دبلوم الصحافة عام ١٩٤٥.

وبعد خمس سنوات وتحديدا في مطلع عام ١٩٥٠ عثر على شريكة حياته السيدة اعتدال الصافي، وأنجب منها ثلاثة أبناء «عادل ونبيل وعلاء» طبيب ومهندس ومحامٍ، لكنه يقول عن الزواج: «سيظل الناس يتزوجون إلى الأبد ما دام هناك مَن يظن أنه أفضل حظًا من الآخرين».

وبعد شهور قليلة من زواجه الذي اختار له نفس تاريخ ميلاده، عمل محررًا في «أخبار اليوم»، وكان مسؤولا عن باب بعنوان «هذا وذاك»، وظل كذلك حتى ٣١ مارس ١٩٦٤، وفي

ذات العام انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» وحرّر فيها بابًا بعنوان «ابتسم من فضلك»، ثم غادر «أخبار اليوم» بعد قرار تأميم الصحافة، ورحل إلى «دار الهلال» مع صديقه أحمد بهاء الدين وظل يكتب في مجلة «المصور» لعشر سنوات، وبعدها عاد إلى «الأخبار».

«٢»

محمد عفيفي هو صورة لجيل بأكمله نبغ في كل شيء، ولم يسع لشيء، فهو صحفي، وساخر، وروائي، وكاتب مسرحي، وله ثلاثة عشر كتابًا لن تجد أغلبها في المكتبات رغم أهميتها وقيمتها الأدبية والفكرية وروعة أسلوبها لكن أجمل ما في كتبه أنك حين تقرؤها لا تتصور أن من كتبها رحل منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا فيقول: أحيانا أميل إلى قراءة كتب الخرافات.. بالأمس عكفت على قراءة «ميثاق حقوق الإنسان»!

لم تشغله الحياة بقدر ما شغلها هو بفنه وإبداعه وقدرته على التكثيف والتبسيط والتوصيف والتشخيص لكل ما فيها ومَن فيها، فلم يكتب من أجل أن يحصد المجد أو الشهرة والمال، ولو أراد لحقق كل شيء، لكنه لم تشغله الأضواء ولم ينشغل بها، فهو واحد من هؤلاء المتواضعين العظام الذين لا يشعرون بأن ما يفعلونه يستحقّ الثناء والاحتفاء والتمجيد والتهليل، هو يظن أنه يفعل ما عليه فقط، يكتب ما يعتقده ويجعلك تضحك على طريقته، لذا يوضح الفرق بين المهرج والساخر قائلا: «المهرِّج يجعلك تضحك عليه، والساخر يجعلك تضحك عليكما».

هـذه هـي مدرسـته في السـخرية فهـو بـلا عُقـد، ولا يريـد التصنـع أو ادعـاء العلـم رغـم كونـه عليـمًا، ولم يـدَّعِ بطولـة رغـم أنـه بطـلا حقيقيًّـا، كان يفعـل كل شيء ببسـاطة وتلقائيـة وخفـة ظـل، لكنهـا بسـاطة عميقـة، وتلقائيـة منتقـاة، فـلا يخاطـب القـارئ مـن أعـلى بـرج عاجـي، لكنـه يخاطبـه مـن الكـرسي المجـاور لـه عـلى المقهـى فيقـول لـه: الفـرق بـين اللـص الصغـير واللـص الكبـير، أن الأول يتسـلق الماسـورة، أمـا الثـاني فيتسـلق الموجـة!

ظـل محمـد عفيفـي بعيـدًا عـن السياسـة وتقلباتهـا، وظلـت كتاباتـه مرتبطـة بنبـض البسـطاء، الذيـن كان يكتـب مـن أجلهـم، ويرصـد معاناتهـم، ويعـبر عنهـم في كلـمات قليلـة لكنهـا كافيـة، لكنـه لم ينافـق القـارئ بـل كان عينـه وقلمـه، لذلـك حـين تفشـت ظاهـرة «الإفتـاء السـياسي» قـال: «بعـض المصريـين يفهمـون في الطـب، وبعضهـم يفهـم في الهندسـة، وبعضهـم في الأدب والفلسـفة، وبعضهـم لا يفهـم في أي شيء، ولكنهـم جميعًـا يفهمـون في السياسـة»!

لم يغـيّر سـيارته الفـورد النبيتـي موديـل ١٩٥١ الكالحـة لمـدة ثلاثـين عامًـا، كان يـترك بابهـا مفتوحًـا لعـل أحـد لصـوص السـيارات يـرقّ لحالهـا فيضـع فيهـا صدقـة جاريـة -عـلى حـد تعبـير الرائعـة سـناء البيـسي التـي ظلـت بصحبتـه داخـل حجـرة واحـدة لعـشر سـنوات كاملـة في مبنـى «أخبـار اليـوم»- ربمـا لذلـك كان يسـأل صاحـب السـيارة الفارهـة: «يـا أيهـا الذاهـب إلى صـلاة الجمعـة بالسـيارة المرسـيدس أتريـد الآخـرة أيضـا؟!».

ووضـع محمـد عفيفـي تعريفـا للمواطـن المـصري قـال فيـه: «إنـه المواطـن الوحيـد في العـالم الـذي يمكنـه أن يمـوت في حـادث تصـادم بـين مرسـيدس وكارو»!

ويضيـف: «نعـم، تسـتطيع السـيارة الخَرِبـة أن تسـتمر في السـير..

ا ا وضعتها أعلى طريق منحدر»!

أعتقد أن هذه العبارة تحمل التفسير الوحيد لما نحن فيه الآن.

«٣»

عفيفي عاش زاهدًا، وعازفًا عن الحياة الصاخبة رغم أنه واحد من مؤسسي شلة الحرافيش، ومن أقرب أصدقاء نجيب محفوظ، وقد كتب عن محفوظ مقالا شهيرًا بعنوان «رجل الساعة» وتحدث فيه عن عبقرية الرجل الذي يفعل كل شيء بدقة حتى إنك يمكن أن تضبط ساعتك على مواعيده، فسيجارته على رأس كل ساعة، وجلوسه على المقهى بحساب، وسهرته مع الحرافيش بميعاد، وهكذا كل شيء في حياة نجيب محفوظ.

وحين اقترب الأجل، واشتدّ المرض، ودنا ملك الموت من عفيفي لم يأتمن أحدًا على روايته الأخيرة إلا نجيب محفوظ، فترك له مسودة العمل بلا عنوان، فاختار لها أديب «نوبل» اسم «ترانيم في ظل تمارا»، ونُشرت بعد رحيله.

أعمال عفيفي تنوعت، إذ بدأها بمجموعة قصصية سماها «أنوار»، ثم تبعها بمسرحية «التفاحة والجمجمة»، وبعدها كتب روايته الأولى «بنت اسمها مرمر»، ثم اتجه إلى أدب الرحلات بـ«تائه في لندن» و«فانتازيا فرعونية» و«سكة سفر»، وبينها أرّخَ لجلسات الحرافيش بروايته «شلة الحرافيش»، لكن يبقى أشهر أعماله هي كتبه الساخرة ومنها: «ابتسم من فضلك»، و«ابتسم للدنيا»، و«ضحكات عابسة»، و«ضحكات صارخة»، و«للكبار فقط».

والحقيقة أنه بالفعل للكبار فقط، فرغم سلاسة أسلوبه وروعة لغته وبساطة كلماته ودقة تعبيراته فإنه اختار أن يكون واحدًا من هؤلاء الكتاب الذين يجب أن تبذل جهدا من أجل أن تصل إلى أعمالهم، فلا يمكن أن تجد كتبه ملقاة على الأرض أمامك على قارعة الطريق، ومن الصعب أن تعثر عليها في المكتبات، وربما الحل الوحيد لهذه المعضلة أن تتم طباعة أعماله الكاملة، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب تنفيذ ما طالب به مرارًا أستاذنا أحمد رجب وهو إطلاق اسم محمد عفيفي على أحد ميادين مصر، فلا يجوز أن لا تعرف الأجيال القادمة والحالية قيمة كبيرة وقامة عالية مثل محمد عفيفي الذي لقَّبه عمنا محمود السعدني بالساخر الأعظم.

عفيفي حالة متفردة يجب أن تبحث عنها وتسعى لها لتقطف ثمرتها، لتشعر بنشوة القراءة له، وتدرك مقصده حين يقول: في حديقة الحيوان أشعر بأمان أكبر بكثير من ذلك الذي أشعر به في الشارع، فحيوانات الحديقة كما تعلم محبوسة!

الطريق إلى بيت أحمد رجب!

«١»

حين تطأ قدماك منزل عمنا أحمد رجب تدرك تمامًا أن مَن يسكنها هو إمام الزاهدين، وسيد المتواضعين، فالشقة اشتراها حين تزوج في مطلع الستينيات من القرن الماضي، وليس بها أي مظاهر للترف أو الثراء رغم كونها تقع في واحدة من أرقى مناطق الجيزة، في حي المهندسين، فالتكييف يبدو أنه اشتراه منذ زمن بعيد، والأثاث رغم أناقته فإنه لا يوجد به أي مبالغة، والجدران يكسوها ورق الحائط، ولا توجد عليها سوى صورتين إحداهما لابن أخته، والثانية لصديق عمره.

يجلس على مقعده وبجواره عدد كبير من الكتب والصحف وفي يده «أخبار اليوم»، وأمامه شاشة تليفزيون يشاهد عليها برامج التوك شو المسائية وقنوات الأخبار العالمية.

ذهبتُ إلى الأستاذ أحمد رجب -بناءً على موعدنا- في تمام الثانية عشرة ظهرًا، وبمجرد أن وصلت أمام بيته وجدتُ من ينتظرني ليصعد بي إلى شقته في الدور الأول.

طَرْقَة واحدة على الباب كانت كافية ليفتح عاطف -ذلك الرجل الذي لم يفارق الأستاذ منذ قرابة ٤٠ عاما- فدخلتُ، وعبرتُ باب الشقة، ووجدت الأستاذ جالسًا على مقعده، وجواره عصاه التي يتوكأ عليها، ممسكًا بـ«أخبار اليوم»، وحين رآني عَلَت الابتسامة وجهه، خصوصا أنني كنت أرتدي «تي شيرت» مطبوعًا عليه صورته، وأحمل في يدي جائزة الصحافة العربية، المنحوت

عليها اسمه والتي شرّفني باختياري لتسلمها نيابةً عنه، وسلمت له الجائزة وشهادة التقدير والحقيبة، فكافأني مكافأة لم تخطر لي على بال، إذ جعلني أتجول في بيته وأرى مكتبه ومكتبته.

رأيت بيته غرفة غرفة، ورأيت المكتب الذي يكتب عليه «نُص كلمة» منذ أكثر من نصف قرن، وشاهدت مكتبته المكتظة بأمهات الكتب من الأرض إلى السقف، وإلى جوارها عدد هائل من شرائط الكاسيت التي ما زال يحتفظ بها لجبابرة الغناء: أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وشادية وغيرهم، وكذلك شاهدت شرائط الفيديو المسجَّل عليها الأفلام التي كتب قصتها والسيناريو والحوار لها.

«٢»

وحين انتهت جولتي في الشقة، جلسنا ساعتين نتحدث في كل شيء، لكن أغلب حديثنا دار حول أولياء الكتابة الصالحين الذين عاصرهم وعاش معهم وبينهم أمثال جليل البنداري الذي تمنى أن يكتب كتابًا عنه، وكامل الشناوي وجلساته الساخرة، وعلي أمين وجلساته الساحرة، ومصطفى أمين الذي كان يزور أحمد رجب في بيته، ويجلس على الكرسي المواجه لباب الشقة، وأثنى كثيرًا على الأستاذ إبراهيم عيسى وأبدى إعجابه الشديد بذكائه، وخفة ظله، وثقافته، ومقالاته، وبرامجه.

وتحدثنا عن الرئيس المعزول محمد مرسي، وفاجأني الأستاذ بأنه كان يتمنى أن يكتب رواية كوميكس مستوحاة من شخصية مرسي، فهو يرى أن هذا الرجل مادة ثرية وملهِمة للساخرين.

وقال لي إنه يرى أن المأساة والملهاة وجهان لعملة واحدة،

ا.لك منذ سنوات طويلة أعاد كتابة السيناريو والحوار لواحدة من أشهر المسرحيات التراجيدية، وهي مسرحية «عطيل» لشكسبير، ولكنه صاغها بصورة كوميدية، واتفق مع صديقه المخرج فطين عبد الوهاب على إخراجها، لكنه رحل قبل أن يخرج العمل إلى النور، ولم تكن معه نسخة أخرى من السيناريو الذي كتبه، ولم يستطع الورثة العثور على هذا السيناريو!

أحمد رجب يرى دائمًا الوجه الساخر من الأشياء، ويمكنه بكلمة أو بحرف واحد فقط أن يجعل من المأساة ملهاة، فلا يمكن أن تتمالك نفسك من الضحك وأنت تجلس معه، يظهر ذلك في أعماله، ويظهر أكثر في كتابه الجديد البديع «يخرب بيت الحب» الذي صدر حديثًا، والذي كان يكتب صفحة واحدة منه كل يوم، حتى يتمكن من إنجازه، وأهداني الكتاب قائلا: «إلى ابني العزيز صحفي المستقبل المرموق الذي وكّلته استلام جائزتي من مسابقة الصحافة العربية، والشهادة للحق أنه أحضر لي كل شيء كاملا دون أن يحدث منه أي اختلاس فشكرًا لأمانته وأتمنى أن أراه صحفيًا مرموقًا أفخر به لأنه ابني».

«٣»

كلام والدي أحمد رجب شرف لا أدّعيه، لكن أكثر لحظة شعرت فيها بأنني ابنه فعلا حين دق جرس التليفون في تمام العاشرة مساءً من يوم ١٤ مارس ٢٠١٤، ورغم أننا نتحدث كثيرًا، وطويلا، فإنه لم يتصل بي أبدًا في هذا التوقيت، فعادة الأستاذ أن يتصل بي في الصباح، وغالبًا ما أكون نائمًا، وأعاود الاتصال به عندما أستيقظ، ودائمًا ما يسخر مني بسبب نومي حتى

الظهيرة، ويقول لي: «أنت صاحي بدرى كده ليه؟!».

فكان غريبًا اتصاله في العاشرة مساءً، لكن بمجرد أن رددت جاءني صوته فرحًا، ومبتهجًا، ومنتشيًا، وقال لي: «أنا فزت بجائزة الصحافة العربية، كأفضل عمود صحفي.. وهمًا أبلغوني منذ دقائق بالجائزة، لكن أنا طبعًا مش هاقدر أسافر، عشان كده قررت أنك تسافر مكاني، وتتسلم الجائزة نيابة عني.. من النهارده أنت أحمد رجب».

في هذه اللحظة كدتُ أُصاب بالجنون من الفرحة، لم أصدق، ولم يستطع عقلي تحمل ما قاله الأستاذ، لدرجة أنني لا أذكر ماذا قلنا بعد ذلك، وكيف انتهت المكالمة بيننا، وتذكرت في هذه اللحظة نجيب محفوظ حين قرر أن لا يذهب لتسلم جائزة نوبل وأرسل ابنته لتتسلمها بدلا منه، لا أعرف لماذا هذه الواقعة تحديدًا التي هبطت على ذاكرتي، وعلى ذاكرة زوجتي في نفس الوقت!

ربما لأنني شعرتُ بما يقوله لي دائمًا إنني ابنه الروحي، وهذا شرف أحاول أن لا أصدقه من فرط سعادتي به، وأخشى أن يصيبني الغرور بسببه، لكن بعد أن أُغلق الخط، وفي ظل فرحتي الغامرة، تذكرتُ قائمة طويلة من التلاميذ والمريدين والمقربين منه، وعلى رأسهم الرائعة صفية مصطفى أمين، التي يكفي اسمها ليجعلها أقرب الأحياء إلى قلب أحمد رجب، لذلك اكتملت فرحتي حين هنأتني على اختياره لي، لكنني ظللت لا أصدق!

فعاودت الاتصال بالأستاذ، وقلتُ لنفسي، ربما يعيد التفكير مرة أخرى، ويختار شخصًا آخر يمثله، ويتسلم الجائزة نيابةً عنه، خصوصا أن البعض عندما علم باختياره لي، لم يَرُقْ لهم

الاستيار، وتمنوا أن يكونوا مكاني، وصارحته بما في قلبي فجاءت إجابته قاطعة وواضحة وحاسمة: «أنا قلت أنت اللي هتسافر معي أنت اللي هتسافر.. أنا حابب أنك تشاركني هذه الفرحة».. فعجز لساني عن النطق، والشكر.

«٤»

لكن شاء القدر أن يرحل أحمد رجب قبل أن يعرف أن رفيق رحلته قد رحل إلى الدار الآخرة!

لم يستطع أحد أن يبلغه أن صديقه قد سبقه، لأنه حين انتقل مصطفى حسين إلى دار البقاء كان أحمد رجب يرقد في غرفة العناية المركزة التي ظل بها قرابة الستين يومًا، وكان الجميع ينتظر أن يسترد صحته وعافيته ويعود إلى بيته ليبلغه نبأ رحيل رفيق الأربعين عامًا الماضية منذ التقيا عام ١٩٧٤.

رحل أحمد رجب الأستاذ الذي تشرفتُ بصداقته، والإنسان الذي تعلمتُ من تواضعه ووفائه وإخلاصه وصدقه وعدم سعيه لمال أو شهرة أو سلطة، كان مكتفيا بأن يقول ما يعتقد دون أن ينتظر المقابل، فلم يشغله الثناء أو السباب، كان يقول لي دائما: «أنا أدفع ضريبة ما أؤمن به، وقد أكون على صواب وقد أكون مخطئًا لكن مَن يهاجمني لم يفكر ماذا يفعل لو ثبت أني على حق.. ولا أريد من أحد أن يتصدر للدفاع عني، فلست عاجزًا عن الرد»!

لكن المدهش أن الأستاذ أحمد رجب قد نعى نفسه بنفسه قبل وفاته قائلا:

«أوصيت الأقربين بأن لا يُنشر نعي عند وفاتي، فبيني وبين

صفحات الوفيات خصومة شديدة، فهي في رأيي حقل خصب للنفاق الإداري والاجتماعي والنصب أيضا!

كأن يكتب نصاب لا يعرف المتوفَّى بضعة سطور حزينة ينعي فيها صديقه ورفيق عمره فلان، ثم يتوجه إليه معزيًّا وهو ينزف الدمع الهتون، وينجلي الأمر بقوله إن المتوفَّى مديون بألف جنيه دين شرف في لعب البوكر، وإن الله يرحمه كان شريفًا جدًّا في لعب الورق وعمره ما غشّ!

ولقد كانت أول صحيفة مصرية أدخلت هذه البدعة هي جريدة (الوقائع المصرية)، إذ نُشر بها أول نعي عن وفاة إحدى بنات محمد علي باشا تحت عنوان (ارتحال بنت أفندينا وليّ النعم من دار الفناء إلى دار البقاء)، وقال كاتب النعى (إن القلم في يدي يزفر ويبكي حزنًا على حضرة المعصومة والدرة المعدومة فرع الأصل الأصفى)، ويلاحَظ أن وفيات جريدة (الوقائع) اقتصرت على أفراد الأسرة الحاكمة، وكان النعي مقصورًا على نشر الخبر دون أن يُنشر بجوار الخبر ذلك البكاء المصطنع من المنافقين والنصابين.

وإذا كانت صفحة الوفيات لم تظهر في صحافة الغرب، فإن الغربيين يناجون المتوفَّى في لوحات توضع على القبور بدلا من سطور الصحيفة، وتضم هذه اللوحات أحيانًا ما يثير الضحك في موقف بعيد تمامًا عن الضحك، فهذه مثلا لوحة في بروك فيلد بولاية كونكتيكت أوصى الزوج بكتابتها قبل مماته (هنا يرقد جون فليبروك وزوجته ظهرًا لظهر، وحين يُنفخ في الصور يوم القيامة ستنهض هي ولكني لن أنهض حتى لا أراها).

وفي سيلبى بمقاطعة يوركشاير بإنجلترا (هنا ترقد زوجتي، وأكون كاذبًا لو قلت إني حزين ،عليها فقد كانت عديمة التربية

ـ ليطة اللسان).

وفي مدينة لينكولن كتبت زوجة (هنا يرقد جيرد بيتس الذي يعيش أرملته في شارع إيلم رقم ٦ وهي في الرابعة والعشرين من عمرها ولديها كل مقومات الزوجة العظيمة المريحة). ولوحة أخرى (هنا ترقد سينثيا ستيفنز زوجتي، عاشت ست سنوات في الهموم والمنازعات وأخيرًا استراحت وكذلك أنا).

ويبدو أن أرملة السيد جيمي ويت كانت في شدة البخل، إذ كتبت على قبره في فولكيرك بإنجلترا (مات ذات صباح في الساعة التاسعة فوفّر بذلك وجبة الغداء ووجبة العشاء يوم وفاته).

وفي ميدواي لوحة تقول (هنا يرقد العم دانيلز، للأسف خلع فانلته الشتوية مبكرًا قبل حلول الصيف).

وفي بدفورد بإنجلترا (هنا يرقد مستر دادلي وزوجته التي كانت متفوقة عليه دائمًا، ولكن انظر كيف هزمها الموت).

ولأن الأمريكيين من هواة التقاليع فإن الحانوتية يعرضون على أهل المتوفى أبياتًا شعرية ممكن وضعها على اللوحة حسب الأحوال مثل (هنا يرقد فلان كان قويًا وعظيمًا لكن فرامل السيارة لم تكن كذلك).

ومن أغرب اللوحات لوحة تقول (صدِّق أولا تصدِّق.. هنا يرقد رجل شريف)!

أما في صحفنا فقد نشرت زوجته هذه المناجاة في صورة هذا التهديد (يا حبيبي ارقد في سلام وهدوء.. حتى ألتقي بك)»!



عمك محمود

«١»

«زمان كان مدرّس الحساب يعتقد أنني حمار وكنت أعتقد أنني عبقري، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن المدرس كان على خطأ، واكتشفت أيضًا أني لم أكن على صواب، فلا أنا عبقري ولا أنا حمار، بصراحة أنا مزيج من الاثنين، العبقري والحمار.. أنا حمقري!

ولأني حمقري، فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلأس، ولأنني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا (أنا أضحك إذن أنا سعيد) وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تفرقع على لسانه تفرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ابتسامة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه».

هكذا وصف السعدني نفسه، فهو كاتب يختمر الحزن في قلبه، ليُخرجه لنا ضحكًا، وأدبًا، وفنًّا، وسخريةً، فهو ليس كاتبًا فحسب بل هو أمة من الكُتّاب والمثقفين والمفكرين والمبدعين والساخرين؛ لذا لم أحزن أنني لم ألتقِ كاتبًا مثل حزني أنني لم أجلس بصحبة العم محمود السعدني رغم أنه متاح أن تقابله في نادي نقابة الصحفيين حيث يقابل أي أحد يطرق بابه، لكنني عرفت الطريق متأخرًا بعد أن تمكّن منه المرض وصار لا يغادر

بيته، وحين كرّمته نقابة الصحفيين، ذهبتُ فرِحًا بأني سأراه في احتفالية النقابة لكنه لم يأتِ، ويومها وقف أخوه الفنان صلاح السعدني قائلا: «طبعا أنتم الآن كمن ينتظر محمد عبد الوهاب فجاء إليه شعبان عبد الرحيم»!

«٢»

لكن قبل قرابة نصف قرن من هذه الواقعة وتحديدًا في عام ١٩٤٦ بدأ محمود السعدني حياته الصحفية في جريدة كان مقرها إسطبلا لحمير أحد المماليك البحرية!

لكن حياته تغيرت حين ذهب إلى مأمون الشناوي في مجلة «كلمة ونص» واستقبله مأمون بلا مبالاة ولم يرحّب به، وقال له: «عاوز تكتب؟»، ولما أجاب بالإيجاب، تساءل في تهكّم: وبتعرف تكتب؟ فأجابه: نعم، فأشار إلى مكتب أمامه وقال: «اقعد كده ورّيني».. ورغم ارتباكه الشديد وخوفه من الفشل في أول امتحان حقيقي يواجهه فقد كتب عدة أوراق بسرعة، وعندما ألقى الشناوي عليها نظرة قال وهو يتفحصه: أنت اسمك إيه؟ فهتف على الفور: محمود السعدني، فسأله وهو يشعل سيجارة: أنت عارف السعدني يعني إيه؟ ولما أجابه بالنفي، قال: السعدان يعني القرد، والسعدني يعني القرادتي!

وفكر السعدني أن يلعن جدوده وينصرف، لكنه تسمّر في مكانه كالتمثال لا يتكلم ولا يتحرك حتى قال له مأمون: «ابقى فوت علينا تاني!».

وفي العدد التالي من المجلة وجد السعدني ما كتبه منشورًا، فعاد للشناوي، وأصبح محررا براتب ستة جنيهات، وصارت

..بهما صداقة طويلة وممتدة.

وفي عام ٤٨ قرر الولد الشقي التطوع في الجيش والذهاب إلى حرب فلسطين بصحبة صديقه الفنان طوغان، لكن بعد الكشف عليهما تم رفض السعدني، لأنه كان دقيق الحجم، فقال طوغان للقائد: «أنا ماينفعش أروح أحرر فلسطين لوحدي من غير السعدني»!

وعادا معًا، واستمرت صداقة العمر، وحين سمعا بيان ثورة يوليو طارا فرحًا، وخلع السعدني حذاءه ليُقبّله، وأصبح مندوبًا لمجلته في القيادة العامة، لأن المسؤولين عنها لم تكن لديهم قناعة بالثورة، لذا قررت المجلة أن تُرسل أقل المحررين شأنًا!

وحين وقع العدوان الثلاثي كان الولد الشقي في سوريا، ولكن انقطعت الصلة بين مصر وسوريا، فأسس مجلة هناك لمناصرة مصر، وفي هذا الوقت نشأت بينه وبين السياسيين في سوريا علاقة قوية ومنهم خالد بقداش، وكان زعيم الحزب الشيوعي، فأعطى خالد خطابًا للسعدني ليسلمه لعبد الناصر، لكن صديقه طوغان نصحه بتمزيقه، ولكن الولد الشقي أصر وذهب إلى الرئاسة وسلّم الخطاب، فتم اعتقاله، ويومها سألوه عن التنظيم الذي ينتمي إليه فقال لهم: «زمش» فتعجب الضباط لأنه لا يوجد تنظيم بهذا الاسم فقال لهم: «لأني لا شيوعي، ولا إخوان، ولا أي حاجة».

ورحل عبد الناصر، وجاء السادات، وتجددت الاتهامات للسعدني، وتم استجوابه من النائب العام على أنه شارك في مؤامرة لقلب نظام الحكم، لكن بعد التحقيق الذي استمر يومين تم الإفراج عنه، لكن في ذات التوقيت صدر قرار من الرئيس السادات بفصله من «روزاليوسف»، ومنع نشر اسمه في الصحف بسبب عدة نكت رواها لأحد أصدقائه عن الرئيس!

وتم تعيينه في «المقاولون العرب»، لكنه رفض قائلا: «لقد كنت صحفيًا، وسأبقى صحفيًا، وسأموت صحفيًا، وسأبعث يوم القيامة في كشف نقابة الصحفيين»، وسافر وعاش سنوات من النفي الاختياري انتقل خلالها من بلد إلى بلد «بلاد تشيل وبلاد تحط» حتى عاد إلى مصر بعد رحيل الرئيس السادات.

السعدني تخصص في نقد السلطة، والسخرية من أفعالها، والضحك على منافقيها وأفاقيها، فصارت كتبه مُتحفًا أنيقًا يضمّ قطعًا أدبية تُشرِّح الحُكّم، ومن فيه. ولعل أكثر الكتب التي شرحت ما يجرى في مصر كان كتابه «عودة الحمار» وتحديدًا تلك القطعة التي يقول فيها: «ليس للمواطن في بلاد الحمير إلا أن يمشي وراء الرئيس، فهناك متناقضات كثيرة في العصر الحميري، منها أن لدينا ديموقراطية واسعة وبلا حدود في كل شيء إلا في السياسة!

في المرور تستطيع أن تمشي على اليسار أو على اليمين، لا شيء يهمّ، وفي الدنيا كلها ممنوع استعمال الكلاكسات منعًا باتًّا؛ للتلوث السمعي، وفي بلاد الحمير توجد أعظم فرقة موسيقية في

العالم وهي السيارات التي تجرى على الطريق.

العكس تمامًا يحدث في السياسة؛ ليس أمام المواطن إلا التطرف، من حقك أن تطيل ذقنك حتى تصل إلى رُكَبك، ومن حقك أن تربّي شعر حواجبك ورموش عينيك وتصبح درويشًا ومن حقك أن تكون متطرفًا حكوميًا وتموت حبًا في الحكومة، أما إذا أردت الوقوف في الوسط فنهار أبوك أزرق، لن تحصل على بلح الشام أو عنب اليمن».

«٤»

أشعر أنَ لقب «عمنا» خُلق من أجل محمود السعدني، وأشعر أنه الأحق دائمًا بهذا اللقب رغم كثرة الأعمام، فهو عمك قولا وفعلا، رضيتَ أم لم ترضَ، أحببتَه أم اختلفتَ معه.

فمصر في نظر المحترفين سلسلة طويلة من الأمراء والملوك والسلاطين، ولكنها في نظر عمنا محمود السعدني مجموعة متصلة من الأجيال و«الصيّع» وأصحاب الحاجات والمتشردين!

مصر في زمن السلاطين لم تكن قلاوون أو قطز أو عز الدين أيبك أو علي بك الكبير، ولكنها كانت الحرافيش والحشاشين. ومصر أيام عبد الناصر لم تكن الرئيس ونوابه، ومدير المخابرات وأجهزة الاتحاد الاشتراكي، ولكنها كانت العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والجنود والمثقفين. ومصر أيام السادات لم تكن الرئيس وزعماء المنابر أو تجار الشنطة وأصحاب بوتيكات شارع الشواربي وأصحاب الكباريهات ورواد الحانات، لكنها كانت ملايين الشحاتين والمتسولين والذين يعانون المرض وخيبة الأمل والجوع.

هـذا هـو الفـارق بـين أن تقـرأ تاريـخ مـصر لكاتـب بقيمـة وقامـة وثقافـة وعلـم ورؤيـة وموسـوعية وألمعيـة وخفـة ظـل وصـدق وإخـلاص الولـد الشـقي محمـود السـعدني، وأن تقـرأه مـن محـترفي كتابـة التاريـخ، فالسـعدني ينظـر نظـرة رجـل مـن الشـارع غـير متخصـص وغـير كمسـاري -عـلى حـد تعبـيره- وعـلى غـير علاقـة رسـمية بالتاريـخ!

هـذه هـي الميـزة الأعظـم في كتـب السـعدني بوجـه عـام، وبصفـة خاصـة في كتابـه «مـصر مـن تـاني» الـذي يجـب أن يلتفـت إليـه القائمـون عـلى التعليـم ليتـم تدريسـه، إلا إذا كانـت هنـاك سياسـة تفـرض أن يكـون كتـاب التاريـخ ثقيـل الظـل، قليـل المعرفـة، يحتـوي عـلى القشـور، ولا يحـوي إلا تاريـخ الرؤسـاء والملـوك، وأن يكـون تاريـخ الحـكام هـو تاريـخ الدولـة، وأن الشـعوب يجـب أن لا تظهـر في كتـاب التاريـخ!

السـعدني يكتـب مـا ينطقـه، ويُطـوِّع اللغـة لخدمـة أفـكاره، وفي حضرتـه ينـسى الجميـع تمامًـا أنهـم قـادرون عـلى الـكلام، فـأي متكلـم فيهـم لا بـد أن يصيبـه الإحبـاط في الحـال، إذ هـو لا يملـك شـيئًا ولـو يسـيرا مـن خفـة الظـل هـذه، ولا كل هـذا الـثراء مـن الحكايـات والمواقـف والتجـارب، ولا هـذه القـدرة عـلى ربـط كل هـذه البـوارق بعضهـا ببعـض في لغـة سـحرية مبهـرة؛ لهـذا يفضـل الجميـع الصمـت والإنصـات.

رجلٌ حدثَ بالفعل!

«١»

المعجزة: أمر خارق للعادة.

وهذا بالضبط ما فعله العم جلال عامر!

الرجل الذي بدأ حياته بعد الخمسين، وفي خمس سنوات صنع مجدًا يعيش دهرًا، وابتكر أسلوبًا جديدًا في الكتابة الساخرة، فبدا كأنه حاوٍ، يُظهر كلمات ويخفي أخرى، يجعل عينك تقع على الجملة التي يريد أن تقرأها، كلمة تخاطبك وأخرى تخاطب مَن يجلس بجوارك، وثالثة تخاطب زوجتك، ورابعة تخاطب من يجلس فوق كرسيّ السلطة!

هكذا كان يكتب، فكل كلمة طلقة تعرف هدفها، ولا تخطئه أبدًا، وتذهب في الاتجاه الذي حدده لها بالضبط، ربما لأنه تربّى على حمل السلاح، والتصويب الدقيق لمدة جاوزت العشرين عامًا، فصارت لديه القدرة على أن يصوّب وهو مغمّض العينين، وتلمح ذلك في قوله: «كنا نزرع سيناء بالمقاومة والآن نزرعها بالحشيش»!

عبقرية العم جلال أنك لا تستطيع التنبؤ بما سيصل إليه في نهاية المقال؛ فهي مجرد «تخاريف» إن أردت أن تحاسبه عليها، وهذه ميزة مَن دَرَسَ القانون، وعرف خباياه واستخدمها فقط لحماية نفسه وفنه وأدبه، وليس لتكدير حياة الآخرين، لذلك عندما تسيطر الكآبة والمكتئبون تزداد الحاجة إلى العم جلال،

وعندما تزداد مساحة الضباب ترجع إلى ما قاله حين سأل أحد ركاب الأوتوبيس الجالس بجواره: «إحنا رايحين على فتنه طائفية أم على ثورة جياع؟» فرد الرجل: «ما أعرفش والله. اسأل الكمسري».

«٢»

هذا رجلٌ حَدَثَ بالفعل!

فلا أظن أن الأجيال القادمة يمكن أن تُصدق حقيقة هذا الرجل الذي صنع شهرته ونجوميته وتألقه وتفرده في خمس سنوات فقط.

فقد ظل يعمل ظابطًا فى الجيش حتى سن التقاعد، ودرس خلال هذه السنوات «القانون» في كلية الحقوق و«الفلسفة» في كلية الآداب، ثم اتجه إلى الكتابة في مجالي القصة القصيرة والشِّعر في جريدة «القاهرة»، وبعدها عمل في صحفيتَي «التجمع» و«الأهالي» لكن ظهرت قدراته الحقيقية في عام ٢٠٠٧ عندما بدأ الكتابة اليومية في جريدة «البديل»، فانتقل إلى «الدستور» وتألق بصفحة أسبوعية ثم لمع في «المصري اليوم» وتصدّر المشهد حتى رحل في ٢٠١٢.

المدهش أن طريقه وطريقته لم يتغيرا، فالكتابة في صحف يقرؤها خمسون قارئًا ولا تعطي له راتبًا -إلا قليلا- لا تختلف عن الكتابة في صحيفة يقرؤها مئات الآلاف من القراء.

فالإبداع عند عمنا جلال عامر لا يتوقف على ارتفاع سعر الدولار أو على عدد القراء، فقد كان يبدع لأنه يُمتع نفسه أولا قبل أن يستمتع قارئه بما يكتبه، ربما لذلك يقول: «مَن

مطابع الصحف هذه الأيام، فسوف يتأكد أننا انتقلنا من مرحلة القراءة للجميع إلى مرحلة الكتابة للجميع».

لكن أظن أن أهم ما فعله جلال عامر هو أنه أعطى أملا لأجيال لم تأتِ بعد، أن الحياة يمكن أن تعطيك ما تستحقه يومًا حتى لو كنت قد قاربت على الستين من عمرك، فقد امتلك موهبة يمكن أن تحجب الشمس عن أجيال سابقة ولاحقة، لكنه لم يتعجل الفرصة، وحين أتت انفجر بركان مواهبه، ولم يعد ممكنا أن يقف أمامه أحد، وخرجت طاقاته الإبداعية دفعة واحدة.

هذا رجل إن لم يكن من أولياء الكتابة الصالحين ربما صار من الأولياء أصحاب الكرامات والمقامات والدراويش، فلا أظن أنه كان يبحث عن كلام يكتبه، فالكلام هو الذي يبحث عنه، وأعتقد أنه كان لا يلهث خلف الأفكار، فالأفكار كانت تذهب إليه طائعة، خاضعة، راضية، وسعيدة.

هذا رجل عاش صابرًا ومثابرًا وصبورًا لم يتعجل الشهرة، ولم يلهث خلف الأضواء، ولم يحاور أو يناور أو يراوغ أو يتاجر أو يبالي بما سيحدث له بسبب ما يكتبه، لكنه كان يرى بقلبه قبل قلمه، ووضع يده على أسّ البلاء، إذ يقول: «في بداية القرن التاسع عشر بدأت مصر نهضتها مع اليابان، ثم حدث أن اليابان انضربت بالقنابل الذرية، ومصر انضربت بالتعصب الديني، فحدث الفارق».

«٣»

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

هكذا يقول العم جلال، وأظن أننا لو استخدمنا المخ في شيء آخر لتبدلت الأحوال، وما تكررت ذات الأحداث بنفس التفاصيل التي جرت منذ يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢.

في هذا التوقيت كان قد مر شهران على قيام ثورة يوليو، وتم اختيار شعار العهد الجديد «الاتحاد، والنظام، والعمل».

.. والتحق محمود السعدني بالعمل في مجلة «الكشكول»، واستقر أحمد رجب في «أخبار اليوم»، وحصلت فاتن حمامة على جائزة أحسن ممثلة.

.. وكشف مصطفى أمين في مقال في «أخبار اليوم» أن قائد الثورة هو جمال عبد الناصر، وذلك من خلال سلسلة مقالات تحت عنوان «سر الضباط التسعة» فغضب جمال عبد الناصر لذلك، وأمر الرقيب بعدم نشر بقية المقالات.

.. وصدر قرار بالعفو عن المتهمين بقتل المستشار الخازندار، والنقراشي، وذلك في إطار مصالحة ثورة يوليو مع الإخوان!

.. وصدر قانون تنظيم الأحزاب الذي نصَّ على قيام كل حزب بتطهير نفسه، أي إقصاء الأحزاب سيئة السمعة، وتقدم فتحي رضوان بإخطار إعلان قيام الحزب الوطني الجديد.

وسط هذه الأجواء الملتهبة وُلد العم جلال عامر الذي شاء القدر أن يرحل في أجواء مشابهة تمامًا!

فقد رحل في ١٢ فبراير عام ٢٠١٢ في اليوم التالي للذكرى الأولى لثورة يناير، وبعد أن صار واضحًا للجميع أن الثورة قد

انحرفت عن مسارها، وسارت في الاتجاه المعاكس، بفضل جماعة الإخوان وحلفائها، وبمساعدة المشير حسين طنطاوي والفريق سامي عنان.

لكن قلب صاحب القلب الأنقى لم يتحمل ما جرى فسقط مغشيًا عليه، رغم أنه تحمَّل كثيرًا؛ فقد شارك في الحرب، وما أدراك ما الحرب، لكن في الحرب العدو واضح، بينما في الثورة بدا الأمر كأنه لا شيء واضحًا على الإطلاق، ربما لذلك يقول: «كل شعوب العالم لا تعرف ماذا يحدث في المستقبل إلا الشعب المصري لا يعرف ماذا يحدث الآن».

العم جلال عامر مر كالطيف بيننا لنعرف أن المعجزات امتدت إلى عصرنا، ربما لذلك كان يدرك أنه سيأتي فجأة وسيختفي فجأة.. وقد حدث!



جبال من الإنسانية

«دائمًا يظل الحظ العاثر يمهِّد لحظٍّ سعيد، والحظ السعيد يمهِّد لحظٍّ عاثر؛ فأهلُ الحكمة لا يُغالون في الحزن، ولا يغالون أيضًا في الابتهاج».

عبد الوهاب مطاوع



رجل جعل للقلم قلبًا!

«١»

روى حكيم صيني أن شيخًا كان يعيش فوق تلّ، ويملك جوادًا وحيدًا محببًا إليه ففرّ جواده، وجاء إليه جيرانه يواسونه لهذا الحظ العاثر فأجابهم بلا حزن: وما أدراكم أنه حظٌ عاثر؟

وبعد أيام قليلة عاد إليه الجواد مصطحبًا معه عددًا من الخيول البرّية فجاء إليه جيرانه يهنئونه على هذا الحظ السعيد فأجابهم بلا تهلل: وما أدراكم أنه حظٌ سعيد؟

ولم تمضِ أيام حتى كان ابنه الشاب يدرّب أحد هذه الخيول البرّية فسقط من فوقه وكُسرت ساقه وجاؤوا إلى الشيخ الحكيم يواسونه في هذا الحظ السيئ فأجابهم بلا هلع: وما أدراكم أنه حظ سيئ؟

وبعد أسابيع قليلة أُعلنت الحرب وجندت الدولة شباب القرية والتلال، وأعفت ابن الشيخ من القتال لكسر ساقه فمات في الحرب شبابٌ كثيرون.

وهكذا دائمًا يظل الحظ العاثر يمهِّد لحظ سعيد، والحظ السعيد يمهِّد لحظ عاثر، فأهل الحكمة لا يُغالون في الحزن، ولا يُغالون أيضًا في الابتهاج.

هذه هي قناعات الكاتب الكبير والأديب البديع والإنسان المبدع عبد الوهاب مطاوع، الصحفي الذي جعل من بريد القراء أدبًا راقيًا، ورقيقًا، ومهمًا، ومؤثرًا، ومسيطرًا، وقادرًا على

تشخيص آلام الناس، والبحث عن علاج يُسكن أوجاعهم، منذ أن تسلم «بريد الجمعة» عام ١٩٨٢، وبدأت رحلته مع هموم القراء، فصار «البريد» أهم نافذة للقراء في الصحافة المصرية والعربية.

استخدم عبد الوهاب أسلوبًا راقيًا في الرد على الرسائل التي يختارها للنشر من آلاف الرسائل التي تصله أسبوعيًا، وأحبَّ القارئ، ولم يتعالَ عليه، ولم يسفِّه من مشكلاته، ولم يضخِّم من أخطائه، ولم يخاطب القارئ يومًا من برج عاجي باعتباره الحكيم العليم، ولم يتعامل مع القارئ باعتباره أقل قامة وقيمة لكنه كان يفكر مع قارئه، ويحاول بصدق أن يجد حلا يَصلُح، ويُصلِح حياته، لذلك كان بمثابة الولي لمريديه من القراء الذين ينتظرون رأيه، ورؤيته، ومشورته وخبرته، وحكمته في أدق تفاصيل حياتهم، صباح كل جمعة في جريدة «الأهرام»، لذلك عندما رحل في أغسطس من عام ٢٠٠٤ كان هذا بمثابة الصدمة لهؤلاء المريدين الذين اعتبروا أنه برحيله لم يعد هناك مَن يمكن الوثوق به.

لم يتاجر بآلام أحد، وإنما ظلَّ كالجبل يحمل هموم البسطاء ويسير بها أينما ذهب، ويحاول حلها كلما أمكن.

«٢»

لكن لو لم يفعل سوى أنه جمع في تجربة واحدة محمود السعدني وأحمد رجب وأنيس منصور ومصطفى محمود وأحمد بهجت وسلامة أحمد سلامة، وغيرهم من أولياء الكتابة وجبابرتها، لكان هذا النصر يكفيه ويكفينا، وتهانينا!

هذا بالضبط ما فعله عبد الوهاب مطاوع حين تولى رئاسة تحرير مجلة «الشباب» وجعلها واحدة من أهم وأفضل وأمتع المجلات في الوطن العربي، وتربَّى عليها جيل بأكمله ظل لفترة طويلة لا يعرف سواها ولا يدرك أن لها بديلا، وظهرت قبلها وبعدها مجلات كثيرة لكن لم يستطع أحد أن يصل إلى ما وصلت إليه من رُقيٍّ مهني يصعب تكراره.

فأنا من جيل قرأ مجلة «الشباب» منذ أيام المدرسة، لكني تعرفت على كتب عبد الوهاب مطاوع في الجامعة، وأذكر جيدا المرة الأولى التي قرأت فيها للأستاذ عبد الوهاب مطاوع، حينذاك كنت في الطريق إلى قنا، ويومها كانت المرة الأولى التي أدرك أنه يمكن أن تنتهي من قراءة كتاب في جلسة واحدة لا تستغرق سوى ساعتين، كان هذا الكتاب هو «صديقي لا تأكل نفسك»، ولا أعرف كيف عرف أنني كنت آكل نفسي في هذه اللحظة! لكنني على كل حال استجبت له، وتعلمت منه، وقررت قراءة كل ما أُتيح لي من أعماله، وقرأت أغلب كتبه، ومنها «أصدقاء على ورق» و«صديقي ما أعظمك» و«انْدهِش يا صديقي» و«يوميات طالب بعثة» وغيرها، وتعلمت منها كثيراً، وأدركت أنه لا يمكن قراءة كتب عبد الوهاب مطاوع إلا إذا كان هناك قلم بصحبتك، فكل كلمة يكتبها كنت أشعر بحاجة إلى تدوينها في أجندة خاصة أعود إليها من وقت إلى آخر.

لكن المدهش أنني أصبحت مدمنًا شراء كتبه، لدرجة أنني كنت أشتري من الكتاب الواحد أكثر من ٥ نسخ، لأقوم بتوزيعها على أصدقائي في الجامعة، لأني شعرت أن القراءة تبدأ من عند هذا الرجل.

«٣»

لكن قيمة عبد الوهاب مطاوع الحقيقية أنه جعل للقلم قلبًا!

فقد كان إنسانًا عظيمًا قبل أن يكون صحفيًا كبيرًا، لكن أهم ما ميّزه وجعله يجلس في مساحة وحده هو الاندهاش!

نعم، فالدهشة هي مفتاح شخصيته، وهي أيضًا بمثابة الباب الذي رأى عبر نافذته حلول المشكلات العظيمة، والهموم الكبيرة التي يواجهها القراء، ويوجهونها إليه، فقد كان يقول دائمًا «اندهش أنت أيضًا يا صديقي لكل ما تراه وتسمعه، فالدهشة بداية الطريق للمعرفة».

هذه هي الحقيقة التي وهبها الله لعبد الوهاب، منذ أن كان طالبًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة التي تخرج فيها عام ١٩٦١، ليعمل بعدها محررًا صحفيًا بقسم التحقيقات بجريدة «الأهرام» بعد أربع سنوات فقط من تولّي الأستاذ محمد حسنين هيكل رئاسة تحريرها، واجتهد عبد الوهاب ولمعت موهبته، وظهرت على كتاباته، وترقّى في درجات جريدة «الأهرام» حتى أصبح سكرتيرا لتحريرها عام ١٩٨٢، ثم نائبا لرئيس التحرير عام ١٩٨٤، ثم مديرا للتحرير ورئيسا للديسك المركزي بالجريدة.

وهكذا ظل عبد الوهاب يصعد سلم المجد المهني درجة درجة، لكن في كل خطوة كان يؤكد موهبته الاستثنائية في الكتابة والإدارة، لكن من أكثر الأشياء التي تأثر بها مطاوع -وتأثرتُ بها- هو ما قاله عباس العقاد لصالح جودت حين سأله: ماذا

تقرأ الآن يا أستاذنا؟ فأجاب: أقرأ كتابًا عن الممثلة الفرنسية بريجيت باردو. فردّ صالح جودت مندهشًا: الأستاذ العقاد يقرأ بريجييت باردو؟!

فقال العقاد: نعم، فليس هناك كتاب أقرؤه ولا أستفيد منه شيئًا جديدًا فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أني تعلمت شيئًا جديدا هو ما التفاهة؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وفيمَ يفكرون!



نريدُ حلاًّ!

«١»

التقيتُ المبدعة حُسن شاه وأجريت معها حوارًا في بيتها، وكان ذلك في الوقت الذي امتنعتْ فيه عن الكتابة في «أخبار اليوم» بسبب ممتاز القط رئيس التحرير آنذاك، فسألتها عن سر الخلاف والامتناع عن الكتابة وعن عدم ذهابها إلى الجريدة التي شاركتْ في بنائها، فقالت لي بنبرة قاطعة وحادة: «مش أنا اللي أتكلم عن خلاف مع واحد من دُور أولادي.. أنا كنت باروح الجورنال لما كان فيه التابعي ومصطفى وعلي أمين وهيكل والحمامصي وأحمد بهاء الدين وأنيس منصور.. دلوقتي الوحيد الذي بقيَ من هذا الجيل هو أحمد رجب ونادرًا ما يذهب إلى الجورنال»!

وبعد أن أنهينا الحوار أهدتني سيرتها الذاتية -التي كتبها الناقد طارق الشناوي- قائلة: «إلى ابني في الصحافة محمد توفيق، أهدي إليك سيرتي الذاتية علّها تعطي لك صورة عن كفاح جيل من الأمهات من الصحفيات في مهنة البحث عن المتاعب».

فقد عاشت، رحمها الله، طوال حياتها مخلصة ووفية وصادقة في مشاعرها تجاه قارئها، فكانت تحترق وتتألم وتبكى بحرقة وتتوجع مع كل رسالة لا تجد لها حلا، لدرجة أن الأطباء نصحوها بالابتعاد عن قراءة رسائل القراء حتى لا يتأثر قلبها،

فكانت تعيش مع القارئ مأساته، وكان الفاكس الذي يرسل عليه القارئ همومه وشجونه هو فاكس بيتها!

كانت حُسن شاه تبحث عن حلول للمشكلات على أرض الواقع لا على الورق، وفارق كبير بين الاثنين، فالحلول على الورق أسهل وأيسر وأسرع ودون جهد، لكن الحلول على الأرض تحتاج إلى عرق ودم، لكنها اعتادت ذلك منذ أن تخرجت في كلية الحقوق، حينذاك حدثت صدفة غيّرت مسار حياتها.

فقد اختارت فور تخرجها في كلية الحقوق أن تمارس مهنة المحاماة، وبالفعل التحقت بأحد مكاتب المحاماة وعملت محامية تحت التمرين، لكن في هذا التوقيت التقت على غير موعد زميلها في الكلية الذي كان يكبرها بعامين، وعرض عليها أن تعمل في الصحافة ففكرت ودرست الأمر ثم وافقت وذهبت معه لتعمل في مجلة «الجيل» التي قد صار نائبا لرئيس تحريرها.

كان هذا الزميل هو الساخر الكبير أحمد رجب، وطلب منها أن تُجري أول حوار لها في الصحافة مع رجل يوناني يعمل بالصناعات اليدوية الفنية، ثم اقترحتْ أن تُجري حوارا آخر مع زميلة لها فاتنة الجمال تشبه النجمة سوزان هيوارت، فصارت غلافًا للمجلة، فطلب منها أحمد رجب أن تكتب اسمها على الموضوع، فوقّعت باسمها الثلاثي «حُسن شاه الهاجع»، فضحك أحمد رجب، وقال لها: «إذا كان حُسن شاه لوحده اسم مكلكع، وكمان الهاجع»!

وبعد شد وجذب امتثلت لكلامه، واكتفت بـ«حُسن شاه» فغضبت عائلتها غضبًا ظل سنوات طويلة عالقًا بالأذهان لأنها تجاهلت اسم العائلة، لكنها انطلقت في رحلة البحث عن

المتاعب، ولفتت الأنظار، والتقت مصطفى وعلي أمين، وأثنيا عليها، وصارت أحد من يُعتمد عليهم داخل مؤسسة «أخبار اليوم»، التي كانت مجلة «الجيل» جزءا منها، وتنقلت بين مطبوعات «أخبار اليوم» وتألقت، وكان حماسها هائلا، لدرجة أنها ذهبت إلى خط النار، حيث شاركت في عملية فدائية ضد العدوان الإسرائيلي في أعقاب هزيمة ٦٧.

لكن المدهش أنها لم تكن مراسلة عسكرية، بل كانت فقط تريد أن تنقل بالقلم والكاميرا إلى القراء حقيقة ما يجري في الضفة الغربية دون تكليف من الجريدة، وفجأة وجدت نفسها تزحف على الأرض بجوار الفدائيين الفلسطينيين، وتحمل بين يديها مدفع كلاشينكوف، وتطلق النار على العدو، وعاشت بين الأبطال على خط النار باسم «أم العبد»، وحين عادت لم يصدق أحد ما فعلته الصحفية الشابة، وصارت ملء السمع والبصر، وصار ما فعلته حديثًا يُروى بين الناس.

«٢»

قبل ذلك بسنوات كان اسمها قد لمع بفضل أم كلثوم!

ففي نهاية الخمسينيات كانت أم كلثوم قد قررت أن تقيم حفلة في بلدتها المنصورة بمناسبة العيد القومي للمحافظة، وطلبت من علي أمين أن تصطحب معها في هذا الحفل حُسن شاه، فوافق رئيس التحرير، وذهبت حُسن بصحبة أم كلثوم وفي سيارتها الخاصة إلى المنصورة، لكن بمجرد أن وصلت هناك، ورغم الود الشديد الذي كان بينهما طوال الرحلة، لكن شيطان الصحافة سيطر على عقل حُسن شاه -على حد تعبيرها-

وشعرت بأنه لا يمكن أن لا تخرج بجديد من هذا الحفل الذي كل تفصيلة تحدث فيه هناك من يرصدها ويرقبها ويترقبها: فهناك من يحلل ويدقق في كلمات أغانيها، وهناك من يصف بدقة أداءها، وهناك من يكتب عن الفستان والمنديل، وغيرها من التفاصيل التي سكنت قلوب محبي كوكب الشرق.

لكن فكرة أخرى طرأت على بال حُسن، وهي أن تترك الحفل وتذهب بعيدًا -بصحبة المصور الفذ فاروق إبراهيم- إلى مسقط رأس أم كلثوم، والبيت الذي وُلدت فيه، وهناك وجدت البيت مهجورًا تسكنه الأشباح، ومليئًا بالحجارة، ولا يوجد به سوى «بلاص»، وعلمت من الجيران أنه في هذا البقعة وُلدت أم كلثوم!

وبمجرد نشر الموضوع في مجلة «آخر ساعة» ثارت أم كلثوم، واتصلت بحُسن شاه وقالت لها: «أنا فيه ناس فعلوا أشياء أقل مما فعلتي بكثير جدًّا وضرّتهم وكان ممكن أضرّك، ولكن أنا لن أفعل لكي شيئًا سوى أنني لن أسمح لك برؤيتي مرة أخرى».

«٣»

وحدث ما أرادت أم كلثوم، وقُطعت كل السبل إليها، ولم تستطع قرابة عشر سنوات من هذه الواقعة أن تذهب إلى أي مكان توجد فيه أم كلثوم.

وحين التقيت حُسن شاه وسألتها: هل ندمتِ على ما فعلتِ مع أم كلثوم؟ أجابت: «شعرت بالندم حين وجدت أنني لا أستطيع الذهاب معها في جولاتها بعد النكسة لدعم الجيش

المصري، لكن لو عادت بي الحياة سأكرر ما فعلت بالضبط، ولكن هذا لا يمنع أنني ارتكبت نوعًا من الحماقة، كنت سأفعل ذلك لأن الصحفي بداخلي أكبر، ولكن أنا لو كنت أذكى ما كنت فعلت ذلك لأن هذه في النهاية أم كلثوم وأنا علاقتي بها خلال السنين العشر التي انقطعت علاقتنا فيها كان ممكن أعمل حاجات كتير، لكن هذه هي تركيبتي، وقد تكون تركيبة خطأ، لكن لا يوجد خطأ مُطلق، فقد فعلتُ ما يرضي ضميري دون النظر إلى العواقب!».

لكن في عام ٧٤ دقّ جرس تليفون البيت، وحين رفعتْ سماعة الهاتف وجدتْ المُتصل يقول بصوت أجشّ: «حُسن شاه موجودة»، فتعجبت حُسن وقالت لنفسها «مين ده اللي لا بيقول مدام ولا أستاذة ولا حاجة، يعني حسن شاه بتلعب معاك في الحارة»، فردّت بعنف: «مين عاوزها؟!».

فقالت: أنا أم كلثوم!

فرقصت حُسن فرحًا، ولم تصدق أن تسمع صوت أم كلثوم بعد كل هذه القطيعة، ولم تَدَعْها أم كلثوم تفكر كثيرًا، فقالت لها: أنا باكلمك عشان أنا شاهدت بالأمس فيلم «أريد حلاً»، وأنا أريد أن أقول إن الفيلم سيكون له بصمة في تاريخ السينما، وفي تاريخ المرأة.



سيدة الكتابة

«١»

الطيبون والأشرار خرجوا كلهم وراء نعش يوسف بك وهبي يودّعونه إلى مثواه الأخير. بين صفوف المشيعين تساند محمود المليجي على توفيق الدقن يهمس له: «الظاهر خلاص، الدفعة مطلوبة وباين الحكاية بالدور يا تيفة»، ويرد الدقن مجفّفًا دموعه: «كله على ودنه يا ابوحنفي»!

ذلك المشهد رسمتْه على الورق سناء البيعي في أحب كتبها إلى قلبي «سيرة الحبايب». وروعة سناء أن رسمها يصف بدقّة، ويحلل برقّة، ويكشف الخفايا والخبايا، فهي ترسم بالكلمات تمامًا مثل زوجها الفنان منير كنعان الذي كان يبدع في رسم اللوحات، كلاهما يرسم، هي ترسم بالكلمات، وهو يرسم بالفرشاة.

ما حدث بين منير وسناء يشبه حكايات ألف ليلة؛ فقد رآها للمرة الأولى حين كانت طالبة في كلية الآداب قسم صحافة، ولم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، لكنه التقط في عينيها نورًا، ووهجًا، ورأى بداخلها جمالا أراد أن يسجله في واحدة من لوحاته التي تتصدر غلاف مجلة «آخر ساعة»، ووافقت طائعة، وسارت معه منساقة مبهورة منوَّمة -على حد تعبيرها- وجلست أمامه موديلًا يحتضن زهر المشمش، وأدمنت الجلوس أمامه ليرسمها، وكانت تمضي ساعات وهي تجلس في

وضع متحجر، تعاني جاهدة أن لا يهتز لها طرف أو ترتعش عيناها أو تسند فقرات عمودها الفقرى المتيبس لطول جلوسها على مقعد خشبي، لكن يهون التعب كله في لحظات للحوار والوئام والتهافت والتراحم والحب والارتباط ورسائله الخاصة التي يدندن لها بها عندما يستغرقه الرسم: «ياللي نويت تشغلني طاوعني وابعد عني.. إن حبيتك يبقى يا ويلك من حبي.. وراح أشغل فكري وبالي عليك وأحبك وأفضل أعيش في هواك لحد ما ييجي يوم وألاقيك آمنت بحبي وجيت برضاك».

وذهبتْ إليه راضية مطمئنة، وتزوجا، وعاشا معًا ليغدو تأثيره وآثاره حاضرة دومًا في ما تقوم به، وما تنطق به، وما تنظر إليه، وما تنتقده، وما تفتقده، وما تسعى إليه، وما تتجنبه، وما تحبه، لذا تقول عنه في حوارها المهمّ مع الصحفية أمل سرور: «ألَمْ يرسم على وجهي الابتسامة والغضبة وحُمرة الخجل وتهويمة الشجن.. ألَمْ يُذِقْني عصارة الكرز ورحيق الياقوت ويسافر بي في حمرة الفجر والشفق وخدود الورد.. ألَمْ يمنحني هِبَة عمري، ابني هشام».

«٢»

لم يصنع فارق الثمانية عشر عامًا حاجزا بين منير وسناء، فمنير وُلد في فبراير عام ١٩١٩، أما سناء فقد وُلدت يوم الجمعة الأول من يناير عام ١٩٣٧.

حينذاك أعلنَ أحمد حسين عن حزب «مصر الفتاة»، وتم الانتهاء من تصوير فيلم «سلامة في خير» لنجيب الريحاني، وعُرض فيلم «نشيد الأمل» بطولة أم كلثوم، وفيلم «ليلى بنت

الصحراء» لكن تم إيقاف عرضه لاعتراض الخارجية الإيرانية باعتباره يسيء إلى أحد الرموز الإيرانية.

وقام رئيس الديوان الملكي ببث شائعة أن «الوفد» حزب يسيطر عليه الأقباط بقيادة مكرم عبيد، فأقيلت وزارة «الوفد»!

في هذا التوقيت وُلدت سيد الكتابة سناء البيسي، وكان والدها يشغَل منصب مدير مصلحة الآثار العربية، وكان أقرب الأصدقاء إليه حسن عبد الوهاب عالم الآثار الإسلامية الذي قام بتحديث قبة الصخرة في القدس، أما والدتها فكانت ترأس لجان الأوقاف الأهلية التي تنادي بحل الوقف على أساس الشرع، واستقبلها الرئيس عبد الناصر في بيته بمنشية البكرى ليُنصت إلى وجهة نظرها.

حار والدها في تسميتها، فسمّاها صديقه عالم الآثار الإسلامية الذي قام بتحديث قبة الصخرة في القدس «سناء» لتحمل المجد والرِّفعة لأبيها ولعائلتها ولمصر بأسْرها، وظلت الفتاة الصغيرة نهمة بحب المعرفة، فكانت لا تنام إلا وقد احتضنت كتابًا ينام على صدرها، فقد ورثت من أمها نَهَم القراءة.

وكانت أمنية والدها أن يراها يومًا مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن، بعدما لمس عشقها للورقة والقلم، لكن لم يكن هناك قسم لدراسة الصحافة في كلية الآداب، فرأى والدها أن تغدو محامية لتستعين بمكتبته القانونية العامرة، وبالفعل قدمت أوراق نجاحها في شهادة التوجيهية لكلية الحقوق جامعة عين شمس.

وقبل دخول الكلية بأيام سمعت صوت صديقتها صافي ناز كاظم ينطلق في مدخل البيت الذي كانت تسكنه في حى العباسية، تصرخ قائلة: «فتحوا قسمًا جديدًا للصحافة في جامعة

القاهرة»، فسارع والدها لينقل أوراقها من الحقوق إلى الآداب تحقيقًا لرغبة ابنته.

وذهبت سناء إلى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة، والتقت الأستاذ مصطفى أمين، وكتبت عن لقائه تقول: «حضر الأستاذ مصطفى أمين ليلقي علينا محاضرة لم أفهم معظمها، لأنه كان ينفث كلماته بين أنفاس سيجارته التي غرسها بين شفتيه فضاعت مع الدخان».

وقرأ العملاق مصطفى أمين ما كتبت، فقرر أن تعمل في «أخبار اليوم»، وتدرجت داخل هذه المؤسسة التي صنعت أساطير الصحافة، ثم انتقلت إلى «الأهرام» لتلتقي بنت الشاطئ، وتصير صديقة لها، وقريبة إلى قلبها، بل صارت الدكتورة عائشة تمدح كتاباتها، لتحقق سناء حلم أبيها!

«٣»

تأثرتُ بها كثيرًا، وعجزتُ عن الكتابة عنها طويلا، وشعرتُ أنها لم تحصل على ما تستحق مقارنةً بعطائها غير المحدود للصحافة، وأشعر دائمًا أنني مدين لها، وأنها أستاذتي حتى لو لم نلتقِ يومًا، ولم تنشأ بيننا أي علاقة.

وربما من أسباب أنني عجزتُ طويلا عن الكتابة عنها هو أن المبدع عمر طاهر كتب عنها فأوجز كل ما يُقال، وأغلق -كعادته- الباب خلفه على من يأتي بعده.

لكن الكتابة كلها لا تعطى سيدة الكتابة حقها، فقد صنعت من مجلات المرأة شيئًا تجب دراسته وتدريسه وتعميمه، وخلقت فرعًا جديدًا في الصحافة كان قبلها هامشًا وهامشيًا،

ومعها صار مهمًا ومركزيًا، وبعدها خرج الجميع من عباءتها.

فحين شرعت سناء البيسي في إصدار مجلة «نصف الدنيا» في فبراير ١٩٩٠ طلب منها ثلاثة من جبابرة الكتابة أن تحجز لهم صفحات أسبوعية يكتبون فيها.

الأول هو الأستاذ أحمد بهاء الدين، أما الثاني فهو العم نجيب محفوظ الذي قرر أن يمنحها كل ما يجود به قلمه ليكون حكرا لها وحدها، فخرجت على صفحات «نصف الدنيا» أصداء سيرته الذاتية.

أما الثالث فهو العملاق يوسف إدريس الذي طلب منها أن تحجز له الصفحة الأخيرة ليكتب فيها مذكراته، وقال لها يومها: «سأكتب لأول مرة قصة حياتي الحقيقية من بداية مولدي طفلا في قرية البيروم، سأكتب أخطر أعمالي الأدبية التي فيها تعرية للنفس والتاريخ والأصل والنسب والأسباب والمسببات ودور الأم والأخت والجدة وأصل المعرفة».

وبدأ إدريس يكتب فصلا وآخر وآخر، ويواصل اعترافاته بجرأة لم يصدقها أحد، فقد كانت عبارات الأديب الجريء تتجول بحرية جامحة، وظل يكتب أحداث حياته وفجأة وجدت صوته يعتذر عن التكملة، وحاولت سناء أن تثنيه عن قرار الانقطاع عن الكتابة لكن دون جدوى، ولم يكتمل هذا العمل الأدبي الذي حمل عنوان «ملكة» الذي كان يعتبره إدريس الأهم في حياته.

ما حققته سناء البيسي في مجلة «نصف الدنيا» كان بالدنيا كلها، فلا يمكن أن يدّعي أحد أنه أتى بما لم تأتِ به سناء البيسي، فقد صنعت كل شيء، ما يخطر ببالك، وما سيخطر في بال الأجيال القادمة.

فقد كان القارئ يبحث عن هذه المجلة المتخصصة في شؤون

المرأة رغم أنها كانت الأعلى سعرًا، لكنها كانت الأغنى فنًّا في السوق الصحفية، لذا كانت تَنْفَد عن آخرها، وعلى الرغم من أن سعر المجلة -بالهدية- كان خمسة عشر جنيهًا، لكنها كانت رائدة «فن المرتجع صفر»!

وهو فنٌّ لو تعلمون عظيم!

محاكم النقد!

مـن حـق أصغر كومبارس أن يصغـي إليه الناس ويحترموه، لكن الجمهور المتوحش اعتقد أنه اشـترى كل شيء بفلوسـه!

سامى السلاموني



ناقد أحبَّ مَن ينتقدهم

«١»

كان يحب مَن ينتقدهم، وينتقد مَن يحبهم!

وكان يمسك بين يديه سيف الناقد الحق الذي لا يبغي جزاءً ولا شكورًا، لكنه أيضًا كان يحمل قلب مُحب بحق لكل مَن يكتب عنهم، فلم يُضبَط مرة واحدة متربصًا أو مترصدًا لأحد، فلم يكن ينتقد لينتقم، وإنما ليجدد ويطوِّر.

وكم من كُتَّاب لم يكن يعرفهم أحد، وحين سلَّط عليهم ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق -على حد تعبير شقيقته فريدة. كان يدرك أن ما يكتبه يجب أن يصل إلى القارئ مباشرة، فلم يتقعر أو يستعرض في كتاباته بل كان واضحًا وجاذبًا، فلم يطغَ عمق فكرته على متعة سرده، ولم تطغَ روح الناقد على بساطة التعبير.

هذا هو رجاء النقاش، الناقد الكبير والإنسان النبيل والمثقف الذي كان يثق بنفسه فيمجِّد مواهب الآخر -مثلما وصفته سناء البيسي- فلم يجد أي غضاضة في أن يكتب كتابًا ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير عن شاعر شاب أصغر منه سنًّا، وأقل منه شهرة، وأن يصفه بشاعر الأرض المحتلة، ليكتشفه ويقدمه للناس ليصير اسمه علامة في تاريخ الشعر، ويصبح الشاعر الكبير محمود درويش. والمدهش أنه رغم كونه بالأساس ناقدًا أدبيًا فإنه كتب كتابًا كاملا عن الإمام المراغي شيخ الأزهر، ربما

بسبب العبارة الأهم والأجمل والأروع التي قالها الشيخ الجليل «قدّموا لي أي شيء ينفع الناس وأنا آتيكم بسند له من الشريعة الإسلامية»، فقد وقعت هذه العبارة في قلب النقاش الذي وجد نفسه قد وقع أسيرا لصاحبها.

وربما لأنه تذكّر والده الشيخ عبد المؤمن، وجدّه الذي كان مقرئًا للقرآن لذا يقول: «إنني استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفني القادر على التأثير الكبير في النفس، وكنت شغوفًا بحفظ القرآن الكريم في السن المبكرة، وقد ساعدني والدي عبد المؤمن النقّاش على ذلك لأنني كنت أجد صعوبة في قراءة أي سورة وحدي، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقًا رفيعًا سليمًا يمكّنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البدهي أنها واجب على الجميع، ولقد ساعدني على تذوق القرآن أن جدي كان مقرئًا للقرآن في القرية وكان صاحب صوت جميل».

«٢»

في عام ١٩٥٢ ترك رجاء أسرته الريفية البسيطة، وأشقاءه السبعة، الذين حاربت الأسرة من أجل تعليمهم جميعا، في قرية «منية سمنود» بمحافظة الدقهلية، واتجه إلى القاهرة في الوقت الذي لم يكن أحد من أبناء طبقته يجرؤ على دخول محلات «شملا»، و«شيكوريل»، و«جروبي»، فهذه الأماكن كان مقصورة

على الباشوات والبهوات، وكان لا يحق لصغار الموظفين سوى التسكع في شوارع وسط البلد، والنظر إلى الفاترينات وواجهات المحلات دون أن يضع أحد منهم قدمه قدمه داخلها، وكان المصريون غرباء يعيشون على هامش الحياة -على حد وصف الدكتور يونان لبيب رزق.

لكن قامت الثورة، والتحق رجاء بجامعة القاهرة ودرس في كلية الآداب وتخرج في قسم اللغة العربية عام ١٩٦٥، ثم ذهب للعمل محررًا في مجلة «روزاليوسف» لمدة عامين، ثم انتقل للعمل محررًا أدبيًّا في مؤسسة «أخبار اليوم»، ولمع النقاش وبدا عَلمًا ونجمًا وسط كوكبة من كبار مثقفي مصر على مدار تاريخها، فجلس مع العقاد وطه حسين، وصادَقَ نجيب محفوظ ويوسف إدريس، واكتشف محمود درويش والطيب صالح، وغيرهم، والتقى جمال عبد الناصر حين دعاه عام ١٩٦٣ ضمن أعضاء المؤتمر الأول لكتاب آسيا وإفريقيا فدخل قصر عابدين للمرة الأولى لينبهر بناصر وبعابدين ويصف المشهد قائلا: «وقفنا في صفوف متراصّة ومرَّ علينا عبد الناصر وصافحنا واحدًا واحدًا فرأيناه عن قرب، وأدركنا صحة ما كان يقال عنه من أن له هيبة وسحرًا وجاذبية وعينين مليئتين ببريق استثنائي يأسر القلوب.. كان هذا كله صحيحًا، فقد مسّتنا كهرباء عبد الناصر فاهتزت منا الأعصاب والمشاعر، وأدركنا جميعًا أننا في حضرة رجل عظيم».

ويستمر النقاش في وصف أجواء اللقاء قائلا: «وبعد أن انتهت المصافحات انتقلنا إلى قاعة العشاء التي تبهر العيون وتخطف الأبصار من فرط جمالها وبهائها، وكان سقفها كله مطليًّا بالذهب، وكلما نظرنا إلى هذا الجمال وهذا الجلال

شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالي ألف ليلة، مع فارق واحد هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان، بل كنا في معظمنا فقراء أبناء فقراء، ومَن كان منا أفضل من ذلك فهو في أحسن الفروض من متوسطي الحال، وكنا ندرك جميعًا أنه لولا عبد الناصر الذي فتح لنا الأبواب وقال لنا ادخلوا، ما كان لنا أبدًا أن ندخل هذه القاعة الذهبية في قصر عابدين، ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسيء بنا الظنون، فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين».

«٣»

وقبل ثلاثين عامًا من لقاء النقاش وعبد الناصر، وتحديدا في ثلاثينيات القرن الماضي كان الدكتور إسماعيل أحمد أدهم قد أصدر كتابًا عنوانه «لماذا أنا مُلحد؟» وقد تم طبع الكتاب وتوزيعه، ولم يتعرض للمصادرة، وكل ما حدث هو أن بعض المثقفين في ذلك العصر أصدروا ردًّا على هذا الكتاب، ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي أصدر كتابًا بعنوان «لماذا أنا مسلم؟» وفيه رد علمي قوي ومُقنِع على دعوى الإلحاد التي نادى بها الدكتور أدهم في كتابه الغريب.

والمدهش أنه لم يترتب على كتاب «لماذا أنا مُلحد؟» أي فتنة فكرية أو دينية، ولم يتعرض صاحب الكتاب للاعتقال أو المحاكمة، ولم يحاول أحد أن يقتله رغم إعلانه الصريح للإلحاد، وفي ذلك أن أصحاب الإيمان في ذلك العصر كانوا على ثقة بأنفسهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان القوي العميق،

وقد وجدوا أنهم قادرون على التصدى لدعوى الإلحاد بالحجة والبرهان والمنطق، وبهذه الطريقة انتصروا في معركتهم للدفاع من الإيمان.

رجاء النقاش هو من روى هذه الواقعة، وجعل من هذه الواقعة درسًا يجب أن يتعلمه كل جيل يظن في نفسه أنه قد بلغ حد الكمال، وكشف ما جرى لصاحب الكتاب الذي ساءت أحواله، واضطربت أعصابه، وامتلأ عقله بالتشويش والارتباك، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره؛ فقد وُلد في نفس العام الذي وُلد فيه نجيب محفوظ في الإسكندرية، لكنه لم يعد أمامه أي ضوء ينير طريق العمر، ولم يعد يتحمل، فقرر الانتحار، وألقى بنفسه في البحر!

وخرجت الصحف في اليوم التالي تقول: انتحار صاحب كتاب «لماذا أنا مُلحد؟».



رئيس محكمة النقد!

«١»

هو ذلك الرجل الذي لا تبهره الصورة لكن ينظر إلى خلفيتها، ولا تخطفه الكلمات البراقة، وإنما يبحث عن معانيها الحقيقية، ولا تجذبه الأضواء حتى وإن وصلت إلى أقرب مَن يجلسون معه ولم تصل إليه، ولا تشغله المناصب حتى وإن كانت الضمان الوحيد لحياة كريمة، فقد عاش أغلب عمره لا يملك أربعة جدران يعيش فيها، وكان كلّما وجد شقة مناسبة اكتشف أن البيت آيل للسقوط، وحين وجد السكن الدائم كانت حياته قد قاربت على الانتهاء.

هو السامي بحقّ، سامي السلاموني، الناقد والزاهد والمثقف والمفكر والساخر، فقد كان مفكرا سينمائيًّا، وناقدًا لاذعًا، وساخرًا كبيرًا، يهاجمك بحدة وبعنف لكن بحب، فلم يكن يكره مَن ينتقدهم، فقد كان يؤمن بعبقرية يوسف شاهين لكنه انتقده بشدة حين اختار لبطولة فيلم «اليوم السادس» محسنة توفيق ثم فردوس عبد الحميد ثم سعاد حسني ثم داليدا، وتساءل السلاموني: كيف يصلح لسعاد حسني ومحسنة توفيق ما يصلح لداليدا؟ هذا يدل على أن شاهين يعتبر الممثلين مجرد قطع شطرنج!

وحين شاهد فيلم «خلّي بالك من زوزو» الذي كتبه وأنتجه صلاح جاهين، انتقد الفيلم بشدة في مقال طويل وقال: «إن

الفيلم يتناقض مع تاريخ جاهين الفني والفكري والدور الذي لعبه كفنان ملتزم بقضايا وطنه، وجعل جيلا كاملا من الفنانين الشبان مَثَلهم الأعلى صلاح جاهين».

هكذا ظل سامي السلاموني دائمًا، يمكن أن تخالفه الرأي لكن لا يمكن أن تختلف على موهبته وقدراته وصدقه وعلمه؛ فقد تخرج في المعهد العالي للسينما، وحصل على الدراسات العليا في الإخراج عام ١٩٧٣، علاوة على ليسانس الآداب قسم صحافة.

«٢»

كان نحيل الوجه، له حسنة بارزة، وأنف طويل يقسم الوجه إلى قسمين، فكأن العينين تنظران من خلف قضيب يفصل بينهما في حسم وصرامة، أما رأسه فقد نحل بفعل الزمن فلم تكن شعرة واحدة فيه إلا وقُصفت أو خُطفت، ولكن الرأس كان مناسبا لجسد ضئيل كحزمة من الضوء تنبعث من كشاف سيارة على الطريق السريع، ولقامة قصيرة تمشي بخطًى سريعة مهرولة، ولكن في انضباط وحنكة لا تتوافر إلا لصعلوك جوّاب آفاق في رحلة دؤوب.

هكذا وصف خيري شلبي، المبدع سامي السلاموني، ذلك المثقف الذي تعلق بالقراءة، فقد تعود منذ كان طفلا صغيرًا أن يذهب صباح كل يوم لشراء الصحف والمجلات لوالده، وكان يجلس في أي مكان يقابله ليقرأها قبل أن يعود إلى أبيه، فوقع أسيرًا في هوى الصحافة، وتمنى أن يصبح واحدًا من نجومها، فبعد أن حصل على شهادة التوجيهية، رحل إلى القاهرة ليكون قريبًا من حلمه، ولكن حدث ما قلب الموازين رأسًا على عقب.

فقد رحل والده، تاركًا خلفه أولاده الصغار أمانة في رقبة ابنه سامي الذي اضطرّ إلى أن يعمل قارئًا لعدادات الكهرباء، وأن يسكن في حجرة صغيرة في بيت آيل للسقوط في حي بولاق، لكنه تغلب على كل هذا، وعمل ودرس، وحصل على أكثر من شهادة، وأصدر عدة كتب، وقام بعمل العديد من الأفلام التسجيلية، وحصل على العديد من الجوائز في النقد والسيناريو والإخراج.

لكنه لم يترك هذه الحجرة «وش السعد عليه» حتى حين صار مشهورًا، ولم يتسلل الغرور إلى قلبه أو قلمه الذي ينتقد أعظم نجوم الفن من مكتب صغير في حجرة متواضعة اضطر إلى أن يغادرها حين تقرر هدمها!

«٣»

ظهر السلاموني في مشهد واحد فقط، في فيلم «الحرّيف»، لكن الدور كان بسيطًا وهامشيًا، فهو لم يحلم أن يكون ممثلا، فهو يدرك أنه لا يملك هذه القدرات، لكنه بحث كثيرًا عن اكتشاف مواهبه، فقد استمر ثلاثة أشهر كاملة يكتب أولى قصصه القصيرة، وعندما انتهى منها أخذها وذهب إلى عبد الفتاح الجمل الذي كان مشرفًا على الملحق الأدبي والفني فى جريدة «المساء»، ولكنه سرعان ما تلقى أولى صدمات حياته العملية في عالم الكتابة.

فلم يُعجَب عبد الفتاح الجمل بقصة سامي السلاموني، ونصحه أن يتجه إلى كتابة المقال، وبالفعل اتجه إلى المقال النقدي، وحين نشر أول مقال له حظيَ باهتمام بالغ لدرجة

جعلت سامي يشتري مئات النسخ من الجريدة ويوزّعها على الأقارب والأصدقاء، بل ويرسل بعض النسخ إلى أهل قريته «سلمون القمّاش» في محافظة الدقهلية!

لكن بعد نشر هذا المقال انطلق كالشهاب، عارفًا طريقه الذي لم يَحِد عنه أبدًا، فقد كان يرى أن الناقد مثل القاضي الذي يجلس على منصة العدالة متجردًا من أي هوى شخصي -على حد تعبير الأستاذ عادل حمودة- لذلك كان يدفع ثمن تذكرة السينما من جيبه، ولا يكتب في كثير من الأحيان إلا بعد أن يشاهد الفيلم أكثر من مرة، ويسجل ملاحظاته على الفيلم في ورقة صغيرة يكتبها على ضوء خافت وهو جالس في السينما.

لم يكن السلاموني صديقًا إلا لعدد محدود من النجوم عرفهم قبل أن يصبحوا نجومًا مثل أحمد زكي، وهذا بدهي لناقد لا يقف إلا مع مَن يراه على حق، فذات مرة احتدت الفنانة شهيرة على جمهور المسرح الذي قاطعها، فشتمتهم وانسحبت، وخرجت الأقلام الحادة تمزقها تمزيقًا، لكن سامي السلاموني قال: من حق أصغر كومبارس أن يصغي إليه الناس ويحترموه، لكن هذا الجمهور المتوحش الذي يعتقد أنه اشترى كل شيء بفلوسه يستحق ما فعلته شهيرة!

تلك الواقعة التي رواها الدكتور أحمد خالد توفيق، تؤكد أن هذا الرجل انتقد كل شيء حتى الجمهور ذاته!

لكنه بجانب النقد لم يكفّ عن شيئين هما الغضب والتدخين الذي كان ينفّث فيه عن غضبه، لذلك لم يتحمل قلبه، وضاقت شرايينه، ورحل في يوليو ١٩٩١ بعد أن أتم عامه الخامس بعد الخمسين.

فرعون في شوارع القاهرة!

«١»

كان بمثابة فرعون بُعث ليسير في شوارع القاهرة في القرن العشرين، احتفظ لنفسه بكل سمات الفراعنة كما نشاهد تماثيلهم المحنطة، ينطلق بخطى ثابتة وواثقة، وشموخ وهدوء، ويبدو عملاقا رغم قصر قامته!

هكذا بدا الأديب الأثري كمال الملاخ لكل من رآه وعرفه، لذا كان بدهيًا أن يكون مختلفًا ومخالفًا للأنماط السائدة، وفريدا في تفرده، ومتفردا في ثقافته: فجمع بين دارسة الفنون الجميلة، وعمله كمهندس متخصص في شؤون الآثار، وقدرته على الكتابة العميقة دون تعقيد، ليجمع بين عضوية نقابة الصحفيين، وعضوية الجمعية الجغرافية العالمية في الولايات المتحدة التي اختارته عضوًا فخريًا بها مدى الحياة.

قيمة الملاخ الكبرى أنه نموذج مدهش لما يجب أن يكون عليه الصحفي؛ فهو عالم وفنان وأديب، وقد بدت مواهبه واضحة منذ كان طالبا لم يتجاوز عمرة الستة عشر عامًا، حين لمعت في ذهنه فكرة أن يدعو عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين -الذي كان يقيم في الفيلا المقابلة لكلية الفنون بالزمالك- ليفتتح معرضه، ويشاهد لوحاته، وبالفعل حضر طه حسين، وطاف به الملاخ شارحا لوحاته في ثقة وهدوء.

ومرت سنوات والتقيا مرة أخرى بعد أن صار الملاخ معيدًا

بقسم العمارة في كلية الفنون الجميلة، وفي أثناء سير الملاخ بجوار عميد الأدب العربي الذي كان يعمل مستشارًا فنيًا لوزارة المعارف، قال مخاطبا الملاخ: «أنا سمعت بموهبتك من توفيق الحكيم، وأتمنى أن تنمّيها بدراسة الآثار»، فاندهش كمال وقال: «وأنا مالي ومال والآثار، فقد عقدتُ العزم على أن أكون مع الأيام أستاذًا للعمارة والفن؟!»، ولكن العميد رد بحسم: «وهل الآثار إلا عمارة وفن؟!».

واستجاب الملاخ والتحق بالجامعة لدراسة الآثار، وحصل على دبلوم عالٍ في الآثار المصرية مثل كبار علماء الآثار، ثم صار مهندسا ومديرا للأعمال في منطقة الهرم، بعد أن جاب الصعيد منقِّبًا ومتفحصًا آثاره.

«٢»

وفي ٢٥ مايو ١٩٥٤، طلب كمال الملاخ من مصلحة الآثار أن يعيد البريق إلى الهرم الأكبر بتنظيف الطريق المؤدى إليه من الرمال المتراكمة فوقه، فتمت الموافقة وبدأ العمل، وفي أثناء عملية التنظيف جاءه كبير العمال ليقول له: لقد عثرنا على «دبش»!

شعر الملاخ أن هناك شيئًا ما خلف هذا «الدبش»، فبدأ النَّبش خلفه، وقام بحفر ١٨٠ مترا وراء هذا الحجر الكبير فاكتشف سورا يبلغ طوله نحو ١٥٠ مترا، ثم عثر على أحجار جيرية تحت السور، ثم بدأ يطرق أبواب الأحجار، فشاهد شيئًا أسود لم يحدده، لكن بعد أن تفحصه، انتفض صائحًا في من حوله «مركب.. دي مراكب الملك خوفو يا جماعة»!

كانت هذه المراكب عبارة عن عدة ألواح خشبية يبلغ طول الواحد منها نحو ٤٣ مترًا، وعرض اللوح ستة أمتار، ولكنها مفككة الأجزاء، فأعطى الملاخ الإشارة لإعادة نفس ترتيب وترقيم وتركيب هذه القطع الخشبية القديمة التي وُجدت في حفرتين بجوار الهرم الأكبر ليرى العالم ما كانت عليه مراكب الشمس منذ ما يقرب من ٥٠٠٠ عام، وقد كان فراعنة مصر واضعين علامات بين الأجزاء المتشابهة والتي يتداخل بعضها مع بعض. ومن العجيب أن جميع الأجزاء لا يربطها مسمار ولكنها يتداخل بعضها مع بعض.

لم يُصدق الملاخ نفسه من الفرحة بعد اكتشافه لواحد من أكبر الاكتشافات الأثرية في القرن، فخرج معلنًا عن الاكتشاف الكبير الذي احتفى به كل علماء الدنيا، ونقلته وكالات الأنباء، وعُرفت مراكب الملك خوفو باسم «مراكب الشمس» لكن حين عاد الملاخ إلى مقر عمله في مصلحة الآثار وجد ورقة مُعلقة باسمه في كشف «الخصومات»، فقد عوقب بخصم عشرة أيام من راتبه لأنه أعلن عن الكشف دون إذن!

لم تكن مراكب الشمس هي السيمفونية الوحيدة التي عزف عليها الدكتور الملاخ، فالرجل له إنجازات لا تقل أهمية عن مراكب الشمس؛ إذ عمل على ترميم آثار جزيرة فِيَلَه بأسوان، وكشف عن حمام سباحة يوناني قديم، ورمَّم هيكله، وقام بترميم قلعة برج العرب، وفي سنة ١٩٤٩ قام بترميم أهرام الجيزة من الداخل والخارج.

وقبل واحد وعشرين عامًا، وتحديدًا في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٨، بعد أربع سنوات من اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وبداية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانتصار إنجلترا وحلفائها وهزيمة ألمانيا، قرر السلطان أحمد فؤاد أن تتحمل الخزانة المصرية ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه ديونًا كانت لمصر على إنجلترا في أثناء الحرب، وذلك اعترافًا بجميل بريطانيا التي حمت البلاد من خطر الغارات! ولم يعرف المصريون هذا القرار الذليل في حينه.

وتقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي بطلب للمندوب السامي البريطاني للسفر إلى لندن لعرض مطالب مصر لكنه لم يستجب، وقال لهم: «مَن أعطى لكم حق التحدث نيابة عن الأمة؟»، فقرر الثلاثة تكوين جبهة ضمَّت عددًا كبيرًا من رموز العمل الوطني لجمع توكيلات من الشعب المصري، وقد نَصّ التوكيل على: «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات... في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تامًّا»، وتم طبع التوكيل ليلا وبأعداد كبيرة خرج بها آلاف الشباب إلى مختلف المحافظات.

كان هذا العام حافلا بالأحداث الهائلة، وبميلاد عدد كبير من النجوم اللامعة في السياسة والفن والأدب والصحافة والثقافة، فقد وُلد الزعيم جمال عبد الناصر، والرئيس أنور السادات، والفنانة ليلى مراد، والمطرب والملحن الشيخ إمام، والأديب

المسرحي نعمان عاشور.

في هذا العام وُلد الأديب والأثري والصحفي والفنان كمال يونان الملاخ في محافظة أسيوط، أحبَّ أسرته وارتبط بوالدته بشدة، وقبل أن يصل لسن المدرسة انتقل والده للعمل بأحد البنوك في المحلة الكبرى، فتلقَّى الطفل كمال تعليمه الابتدائي هناك، ثم أتمَّ تعليمه الأساسي في القاهرة في مدرسة «السعيدية» ليلتحق بعدها بكلية الفنون الجميلة قسم العمارة ليصقل موهبته، وبدأ حياته العملية مهندسًا معماريًا، ثم ضابط احتياط بسلاح المهندسين، ثم انتقل للتدريس في كلية الفنون الجميلة ومعهد السينما والجامعة الأمريكية بالقاهرة، قبل أن يتجه إلى بلاط صاحبة الجلالة ليعمل رسامًا ثم ناقدًا فنيًا في جريدة «الأهرام» عام ١٩٥٠.

وفي أثناء كتابته في «الأهرام» كان صاحب فكرة إقامة مهرجانات سينمائية دولية في القاهرة والإسكندرية فصار أول رئيس لمهرجانَي القاهرة والإسكندرية السينمائيَّين، وكتب المادة العلمية لـ١٨ فيلمًا ثقافيًا قصيرًا عن الفراعنة، وشارك في ترميم أبو الهول والأهرامات، وقدم لـ٣٢ كتابًا في شتى فروع الثقافة من بينها «صالون من ورق»، و«حكايات صيف»، و«النار والبحر»، وهي الكتب التي تسجل براعة كاتب بدرجة عالم.



إلى الذيـن يحبون الحقيقة

من أخطر عيوب مصر أنها تسـمح للرجل العادي المتوسـط، بل للرجل الصغير، بأكثر مما ينبغي وتُفسـح له مكانًا أكبر مما يسـتحق.

جمال حمدان



عذوبة أحمد بهجت!

«١»

أجمل شيء في الدنيا هو الفُرجة!

متعة المتع أن تكون مشاهدًا للعصر، لا شاهدًا عليه، ومتفرجًا عليه لا منغمسًا فيه. إن السلامة كل السلامة تقبع في ذلك، وأنا رجل مسالم بالفطرة، وهذا معناه أنني مؤرِّخ بالفطرة، لست عضوًا في جمعية للمؤرخين، ولم يطلب مني أحد أن أؤرخ لشيء، غير أن عينيَّ لا تكفَّان عن التجول والملاحظة والتأمل!

التأمل وحده هو من جعل عمنا أحمد بهجت يملك تراثًا بديعًا يجعله يجلس في قبره آمنا مطمئنا راضيا عن عمل يُنتفَع به.

ففي كل عام تتم الاستعانة بجزء من هذا التراث لتقديم عمل رمضاني مهمّ ومحترم ومختلف وجاذب، فأحمد بهجت هو صاحب «قصص الإنسان في القرآن»، و«قصص الحيوان في القرآن»، و«أنبياء الله»، و«تأملات في عذوبة الكون»، و«الطريق إلى الله».

لكن في طريق أحمد بهجت إلى الله أخطأ في أربعة أشياء، يقول عنها: «توهمتُ أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما سِرتُ قليلا في الطريق رأيتُ ذِكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، ورأيته قد طلبني أولا قبل أن أطلبه... ذكرني الله قبل أن أذكره: حين صنع آدم بيديه

وأمرني أن أستقر ذرة في كيانه انتظارًا ليوم الخروج.

وعرفني الله قبل أن أعرفه: خلال رحلتي الطويلة من ظهر آدم إلى ظهور أبنائه إلى سيقان النبات إلى حشائش الأرض إلى أجنحة الفراش الملوّن إلى ثمار الأشجار إلى رحم الأم إلى ظهر الحياة.

وأحبني الله قبل أن أحبه: حين هدى أبي فآمن بنوح وركب سفينته.

عرفت أيضًا أن الله طلبني قبل أن أطلبه: طلبني حين سار إبراهيم بقدميه الكريمتين في الخلاء آلاف الساعات حتى تشققت قدماه وسال منها الدم كي يبني لي بيتًا أتوجه إليه في الصلاة».

«٢»

حين التقيتُ الأستاذ أحمد بهجت في مكتبه في جريدة «الأهرام»، ويومها كنت ما زلتُ طالبًا في الفرقة الثانية، وكنت أتابع كتاباته بشغف في «الأهرام» ومجلة «الشباب» وأنتظر حواراته المحدودة جدًّا، وكنت أحمل سؤالا واحدًا إليه يهمني أن أعرف جوابه لكي أتعلم لا لكي أحصل على حوار، سألته: كيف يمكن لصحفيّ شاب أن يصنع أسلوبًا يعرفه القارئ من خلاله؟ فأجاب قائلا: «إن أهم ما يفعله الصحفي في بداية حياته المهنية هو أن يجد كاتبًا كبيرًا يقلده، ولكن ينبغي أن لا يستمر هذا التقليد إلا لفترة محدودة حتى يمتلك الصحفي أدواته ويستطيع صياغة أسلوبه الخاص، ويختار طريقًا لا يسير فيه أحد سواه، هذا ما فعلته مع توفيق الحكيم، فقد كنت أحفظ مفرداته لدرجة أنني كنت أحفظ مقاطع من كتبه،

وظللت كذلك حتى ابتكرتُ أسلوبي الخاص الذي لا يشبه أحدًا، ولكن هذا الأسلوب صنعتْه قراءة واعية، فالكاتب الجيد ينبغي أن يكون قارئًا جيدا جدًّا».

هذا هو الدرس الذي لم أنسه، ولا أظن أنه من الممكن نسيانه، فلا يمكن أن تكون كاتبًا إلا إذا كنت قارئًا محترفًا، لكن مستوى الاحتراف هو الذي يختلف، ففي جيل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كان مَن يقرأ مئة ألف كتاب هو كاتب متوسط، ثم في الجيل التالي صار مَن يقرأ خمسين ألف كتاب كاتبًا جيدًا، وظل الحال هكذا حتى صار مَن يقرأ كتابين يظن نفسه مثقفًا، ومحللا، وخبيرًا استراتيجيًا، ومفكرًا أيضا!

لكن أحمد بهجت نشأ وكبر وصار نجما في جيل أغلبه اشترى بيتًا كاملا من أجل كتبه التي لا يمكن حصر عددها ولا يمكن أن تحويها مكتبة، وعلاوة على ذلك لا يعترف هذا الجيل إلا بقراءة أمهات الكتب؛ فالكتب صغيرة الحجم قليلة المعرفة، لذلك كان أحمد بهجت نَهِمًا في قراءة أمهات الكتب، ولعل ذلك يبدو جليًا في أغلب مؤلفاته، التي يعد بعضها سَيرًا على درب الأوّلين ممن جعلوا الكتابة فنًا أمثال الجاحظ والقزويني والمقريزي وغيرهم ومَن سار على دربهم.

لكن أهم ما ميّز أحمد بهجت هو أنه جعل الكتابة في السير الدينية فنًا لا وعظًا، فقد استخدم حسه الفني، وقدراته الدرامية ومهاراته الصحفية في جعل كتب السِّيَر تدخل القلوب وتنير العقول ولا يَمَلّها أحد.

«٣»

هــو صــوفيُّ الهــوى، لكنــه يملــك عــينَ ســاخر، وقلــبَ عاشــق، وعقــلَ فيلســوف، وقلــمَ مــؤرخ، وذكاءَ فنــان، وفطنــةَ عــالم، ودأبَ طالــب علــم.

لــذا أهــم مــا يميــز أعمالــه أنهــا ذات شــخصية واحــدة وإن تنوعــت، ومؤلفاتــه بمثابــة كتلــة واحــدة نزلــت لتســد فراغًــا في المكتبــة العربيــة، ورغــم ذلــك لم يــدَّعِ علــمًا أو عبقريــة، لكــن المدهــش أن صاحــب الموهبــة الكــبرى في كتابــة سِــيَر الأنبيــاء هــو نفســه كاتــب السيناريو لفيلــم «أيــام الســادات»، ورغــم النجــاح الســاحق للفيلــم فإنــه لم يفكــر في تكــرار التجربــة، ولم يكتــب طــوال حياتــه ســوى هــذا الفيلــم، ربمــا اعتبرهــا هوايــة لا يريــد أن يتكســب منهــا فتصبــح «غوايــة»، وهــو نفــس مــا فعلــه قبــل قرابــة نصــف قــرن مــن كتابتــه لهــذا الفيلــم، فقــد كان يكتــب واحــدًا مــن أشــهر البرامــج في تاريــخ الإذاعــة المصريــة وهــو برنامــج «كلمتــين وبــس» الــذي كان يقدمــه الراحــل الرائــع فــؤاد المهنــدس، لكــن أيضًــا لم يكــرر التجربــة!

وهكــذا ظــل طــوال حياتــه لا يكــرر نفســه منــذ عمــل صحفيًــا في مؤسســة «أخبــار اليــوم» عــام ١٩٥٥ ثــم في مجلــة «صبــاح الخــير» عــام ١٩٥٧، ثــم انتقــل عــام ١٩٥٨ للعمــل بصحيفــة «الأهــرام» بعــد أن تــولى محمــد حســنين هيــكل رئاســة تحريرهــا، وفي ١٩٧٦ تــولى رئاســة تحريــر مجلــة «الإذاعــة والتليفزيــون»، ثــم تركهــا وعمــل نائبًــا لرئيــس تحريــر «الأهــرام»، وبــدأ كتابــة عمــوده اليومــي «صنــدوق الدنيــا» الــذي لم يتوقــف عــن كتابتــه حتــى توقــف قلبــه في ١١ ديســمبر مــن عــام ٢٠١١، لكنــه لم يحصــل عــلى نصــف مــا يســتحق

من الاهتمام، لدرجة أن البعض يخلط بينه وبين رجل الأعمال الذي يحمل نفس الاسم، ليظل أحمد بهجت مظلومًا في حياته وبعد رحيله.



هذا أو الطوفان

«١»

دخل على المنصور وفد من وفود الأقاليم، ووقف خطباء بعض الوفود يدبِّجون تحيّات يُزْجُونها إلى المنصور، وبينما كان أحدهم يتكلم ويسرف على نفسه في المديح إذ شقّ الصفوف غلام من وفد آخر لم يأت دوره في الحديث، وصاح: «كلاّ يا منصور.. إنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا، ووالله إن الناس ليستعْدُون عليك سهام القدر ودعاء السحر، ويسألون الله في حياء قائلين: يا ربنا، لماذا خلقت المنصور؟ وإذا كان لا بد أن تخلقه، فلماذا رزقتنا به؟»!

وانبهر المنصور، وفاح البِشْرُ في وجهه، وسأل الغلام قائلا: «مَن الوليّ الذي يحكمكم.. فوالله إنك لحسنة من حسناته، ولولا أنه يُحسن تأديبكم لما وجدناك هكذا شجاعًا؟!».

الغلام قال الحقيقة، وعلا صوته، ولم يخشَ سوط الملك، ولم يكن طامعًا في ذهبه، وهكذا كان أيضًا خالد الذِّكر المفكر خالد محمد خالد، فلم يكن طامعًا في سلطة، أو راغبًا في نفوذ، أو باحثًا عن شهرة، أو لاهثًا خلف المال، لذلك كان يقول ما يعتقد أنه الحق، لكنه لم يفرض ما يقوله على أحد، ولم يدّعِ أن ما يقوله هو الحق المطلق.

كان محبًا للحق، ولو كان مع غيره، وكان عاشقًا للحقيقة وباحثًا عنها، ولاهثًا خلفها، ومضحيًا من أجلها، وقائدًا من

قادتها، وفارسًا من فرسانها، وقادرًا على تحمل تبعات كشفها!

فالحقيقة على قدر صدقها، على قدر صعوبة الاعتراف بها وتحمُّل عواقبها، وكتاباته كان فتحًا جديدًا ومختلفًا، فهو يؤمن بأنه من دون شجاعة لا توجد حقيقة، ومن دون حقيقة لا توجد فضيلة، لذلك حين أهدى كتابه «هذا أو الطوفان» قال «إلى الذين يحبون الحقيقة، وأيضا الذين يكرهونها، لأن الحقيقة لا تحمل ضِغنًا لأحد».

كان خالد يبحث في كتب التراث والسِّيَر والتاريخ عن وقائع مغايرة لما نعرفه، وعن رؤية مختلفة لما اعتدنا سماعه، ولم يكن ناقلا للأفكار بل كان صاحب مدرسة فكرية مستقلة ومستقيمة، تقرأ وتهضم وتحلل وتفسر، ثم تستخلص رؤية جديدة بعد قراءة عميقة.

لذلك لم يكن يجلس للكتابة إلا إذا استشعر الحاجة الملحّة إلى ذلك وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت إلى ما حوله أو ينشغل به، وقد تمضي من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد في نفسه ما يبعث على الكتابة.

«٢»

وفي عام ١٩٥٠ أصدر المفكر خالد محمد خالد كتابه «من هنا نبدأ» فتمت مصادرته بعد بلاغ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر!

وجاء في عريضة الاتهام أن المؤلف تعدّى على الدين الإسلامي، وصوّر الحكومة الدينية بخصائص تبعث في النفوس محاربة هذا

النـوع مـن الحكـم، وقـال إن القـرآن والسُّـنة فيهـما مـن الغمـوض والاحتـمالات مـا يجعلهـما غـير صالحَـين لأن يكونـا أساسًـا صالحًـا للحكومـة.

هنـا دخـل الشـيخ محمـد الغـزالي المعركـة، ولكـن بسـموّ يليـق بمكانـه ومكانتـه، فقـرر أن يـرد عـلى مـا كتبـه الأسـتاذ خالـد ويفنِّـد كلامـه، ولكـن في كتـاب أيضًـا أطلـق عليـه «مـن هنـا نعلـم»، ولكـن المدهـش أنـه بـدأ كتابـه بالدفـاع عـن خالـد محمـد خالـد قائـلا: «قـد تحـدث النـاس أن الأزهـر سـحب شـهادة العالميـة مـن الشـيخ خالـد، وأنـا أرى أن الأزهـر يكيـل بمكيالـين، فهـل هـو يحاسـب عـلى الخطـأ العلمـي أم عـلى الخطيئـة النفسـية كذلـك؟!».

إن الشـيخ الغـزالي كان واعيًـا أن مواجهـة الـرأي يجـب أن تكـون بالـرأي لا بالمصـادرة والمنـع والتخويـف والتسـخيف لمـن يريـد إصلاحًـا حقيقيًّـا، لا البحـث عـن بطولـة زائفـة!

مـا فعلـه الغـزالي كان سـببا في مراجعـة المفكـر الكبـير لأفـكاره، بـل والتراجـع عـن بعضهـا في كتـاب آخـر هـو «الإسـلام ديـن ودولـة».

وبغـضّ النظـر عـن رؤيـة هـذا أو ذاك، فـإن مـا يعنينـا هنا ليسـت المعركـة ذاتهـا ولا حتـى نتائجهـا، فالمعـارك الفكريـة ليـس فيهـا فائـز وخـاسر -مثـل كـرة القـدم- وإنمـا هـي مناقشـة حـرة هدفهـا الوصـول إلى الحقيقـة، والتعـرف عـلى رؤى مختلفـة، ومواجهـة الحُجـة بالحُجـة، لا بالـضرب أو بالسـجن أو بالمصـادرة.

لم يحـاول الغـزالي تشـويه خالـد رغـم أنـه كان بإمكانـه أن يُقيـم الدنيـا ولا يُقعدهـا، بـل قـال في مقدمـة كتابـه: أحـب أن أذكـر أني صديـق للشـيخ خالـد محمـد خالـد منـذ سـنين، ولكـن ابـن القيـم لمـا رأى عِوجًـا في كلام شـيخ الإسـلام إسـماعيل الهـروي، وكان صديقًـا لـه قـال «شـيخ الإسـلام حبيـب إلينـا والحـق أحـبّ إلينـا منـه».

إنها معارك لوجه الحق أيًا كان صاحبه.

لكن هناك دائمًا مَن يفسدون كل شيء في كل زمان، ففي الوقت الذي كانت فيه معركة خالد والغزالي تدور في فلك فكري راقٍ، تبرع بعض المشايخ بالذهاب إلى المحكمة لمحاكمة الكاتب والكتاب، لكن المستشار محمد فتحي نجيب أصدر حكمه بأن المؤلف لم يخرج في ما كتب عن حد البحث العلمي والفلسفي، وإذا صحَّ أنه أخطأ في شيء مما كتب فإنَّ الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء، وتعمُّد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر، ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق المؤلف فلا جريمة ولا عقاب!

«٣»

لكن قبل ثلاثين عامًا نشرت «الوقائع المصرية» قرارًا جاء فيه: «نظرا لما تنشره الصحف من المقالات التي تُخل بسلطة الحكومة، والتي من شأنها الإغراء على إحداث إضرابات، ستكون الرقابة سابقة للنشر ابتداء من ٦ مارس»، ولذلك ظلت الصحف لفترة تصدر بها مساحات بيضاء، كان بها موضوعات ألغاها الرقيب!

في هذا التوقيت دبّت بذور الخلاف داخل الحركة الوطنية، ودارت مشادة كلامية في باريس بين الزعيم سعد زغلول ورفاق ثورة ١٩، وعلى رأسهم عبد العزيز فهمي لاختلافهم حول المشروع الذي طرحه ملنر، ووصل الخلاف إلى درجة جعلت سعد يرى أن مَن يوافق على هذا المشروع الذي لا يمنح مصر استقلالها كاملا خائن للأمانة، وحينها رد عليه عبد العزيز فهمي قائلا له: «يا

ريس.. لست أنت الوطني الوحيد الذي أنجبته مصر»!

في هذا التوقيت وتحديدًا في السابع والعشرين من رمضان عام ١٩٢٠ في قرية «العدوة» إحدى قرى محافظة الشرقية، وُلد المفكر خالد محمد خالد.

وحين أتمّ الخامسة من عمره التحق بكُتّاب القرية، ثم التحق بالأزهر الشريف، وأتم حفظ القرآن كاملا في خمسة أشهر فقط، وظل يدرس على يد أعلام مشايخ الأزهر طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج في كلية الشريعة، ثم عمل بالتدريس لعدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، ثم تنقل بين عدة وظائف حتى قرر الخروج الاختياري إلى المعاش عام ١٩٧٦.

وآثر خالد أن تبقى حياته بعيدة عن الأضواء والمناصب والصراعات فرفض عروضًا كثيرة للعمل خارج مصر، ورفض أيضًا أن يتولى أي منصب عُرض عليه في عهدَي عبد الناصر والسادات، بل إنه واجه عبد الناصر في عنفوانه في قضايا الحريات، لكنه ظل طوال حياته زاهدًا متصوفًا قانعًا محبًا للمعرفة ومشغولا بالآخرة ومؤثرا في الدنيا.



كاتب يزعج السلطات

«١»

نـادرًا ما يظهـر بيننا مثيل له.

فهـو ظاهـرة لا تظهـر كثـيرًا، رجـل لديـه معرفـة حقيقيـة، وعلـم واسـع، وذكاء حـاد، ورؤيـة ثاقبـة، وهـدف واضـح، وقـدرات خاصـة، وبصـيرة.

رجـل عظيـم بحـق، لكتنـا لا نصـدق أن عظيـمًا يعيـش بيننـا إلا بعـد رحيلـه، ولا نسـتطيع أن نعـترف بتفـرده إلا بعـد أن يذهـب إلى الـدار الآخـرة، ولا نقـدُره حـق قـدره إلا بعـد أن يسـكن قـبره.

عبـد الوهـاب المسـيري كان عظيـمًا في علمـه وعملـه وتواضعـه ودأبـه وفكـره ونضالـه وثباتـه عـلى مبادئـه، ويكفيـه أنـه عـالم واجـه سـلطانًا جائـرًا وقـال لـه «كفايـة»!

فقـد شـارك في تأسـيس حركـة «كفايـة» لنتعلـم أن العـالم والمفكـر والفيلسـوف ليـس شرطًـا أن يكـون مُحلِّقًـا خـارج العـالم، بـل ينبغـي عليـه أن يكـون منخرطًـا فيـه، وعائشًـا عـلى الأرض بـين البسـطاء ووسـط معانـاة البـشر، فالعالِـم عندنـا يفضـل أن يُحلـق بعيـدًا بعلمـه حتـى لا يتعـرض لبطـش السـلطة وينتهـي مشروعـه، لكـن عبـد الوهـاب لم يخـشَ بطـش سـلطة، ولم يبحـث عـن مغانمهـا، ولم يشـغله ذهبهـا، فـكان يجاهـر بمـا يعتقـد أنـه الحـق، ولم يـوازن ولم يـوارب البـاب المـؤدي إلى السـلطة.

ففـي عـام ١٩٧١ حينـما بـدأت مظاهـرات الطلبـة ضـد حالـة

اللا سلم واللا حرب اشترك المسيري في حملة جمع التوقيعات تأييدًا للطلبة، وحينما كتب الدكتور فؤاد زكريا بيانه الشهير الذي وقَّع عليه عدد من كبار مثقفي مصر كان المسيري من أوائل الموقِّعين، وقد ظن رئيس الجامعة آنذاك أنه المسؤول عن البيان فاستدعاه إلى مكتبه، وأخذ يعنفه لأنه تسبب في إغلاق الجامعة، فجاء رده حاسمًا قاطعًا: «يا دكتور لا فائدة من جامعة مفتوحة في بلد محتل».

هذا هو الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي خسرناه حين رحل قبل قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بثلاث سنوات، رغم أنه كان محرضًا عليها، وداعمًا لها، وداعيًا إليها، كنا نريد عالمًا نسأله، ومفكرًا نستند إلى آرائه، لكنه ترك لنا إرثًا ضخمًا من أعماله الصالحة.

«٢»

المسيري ثوريّ الهوى، فحين أتم عبد الوهاب عامه السادس عشر، وقرأ كتاب مادة الفلسفة بدأ يساوره الشك، وقرر أن يتوقف عن الصلاة والصوم حتى يجد إجابة شافية عن أسئلته الشائكة عن أصل الشر في العالم والحكمة من وجوده، وأصل الكون!

وتلقى أفراد أسرته الخبر بشيء من عدم التصديق في البداية، لكنهم كانوا قد تعودوا منه على مثل هذه التحولات، فقبل عامين من هذه الواقعة انضم إلى جمعية الإخوان المسلمين، وكان يقضي وقتًا طويلا من الليل في قراءة القرآن مع أحد الخدم!

كان هذا هو أول عام يدرس فيه مادة الفلسفة، وقد خلبت هذه المادة لُبّه تمامًا، فقد كان يقضي ساعات طويلة في قراءة الكتاب المقرر -عندما كان الكتاب المقرر يستحق القراءة- وقد ساعده هذا على تنويع أسئلته وتعميقها وصياغتها، لكنه لم يجد لدى أفراد أسرته إجابة عن أسئلته، فقد كانت أسرة محافظة تصلي وتصوم دون أن تبحث عن الحكمة مما تفعله، فاتجه عبد الوهاب إلى أستاذ اللغة العربية في المدرسة لكنه لم يجد لديه إجابة تُوقِف سيل الأسئلة التي كانت تطارده.

وتخرّج عبد الوهاب في المدرسة الثانوية، وانطلق بأسئلته إلى الجامعة حيث التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، وهناك كان لا بد أن يملأ هذا الفراغ في نفسه، فاتجه إلى الماركسية، وكان اهتمامه بها فكريًّا فقط إلى أن التقى أحد أعضاء منظمة «حدتو»، الذي جنّده، وصار عضوًا في الحزب عام ١٩٥٤، وفوجئ بتصعيده في الحزب لمعرفته باللغة الإنجليزية، والمصادر الأولية للفكر الماركسي، والمدهش أن الشخص الوحيد الذي اعترض على تصعيده هو نفسه!

فقد قال لزعماء التنظيم: «إنه لا يجب تصعيدي بسبب خلفيتي البرجوازية، باعتبار أن والدي تاجرًا كبيرًا، ولا بد من اختباري للتأكد من نقائي الأيديولوجي»!، ومع ذلك استمروا في تصعيده حتى صار مسؤولا عن خلية شيوعية!

إيمان المسيري بما يفعله جعله يثور على خطيبته في أثناء سيرهما على كورنيش النيل، فقد رأت شحاذًا وأرادت أن تعطيه صدقة، لكن المسيري نهرها وغضب منها، وقال لها محتدًا: «دعيه حتى يشعر بالظلم فيثور»!

لكن مرت الأيام، وأدرك الدكتور عبد الوهاب المسيري أنه

يجب الفصل بين الثورة العامة والبؤس الشخصي الذي لا بد أن تساعد صاحبه.

المدهش أن الدكتور المسيري عاش حياته كلها مضطهَدًا رغم تعدد الأسباب؛ فقد قيل عنه إنه شيوعي، ورأسمالي، وإسلامي في ذات الوقت، مما جعله محكومًا عليه بالهلاك بغض النظر عن الأيديولوجية الحاكمة!

«٣»

في عام ١٩٦٣ وصل إلى أمريكا، يقول: وبمجرد وصولي إلى الجامعة عقدوا للطلبة الدراسين امتحانًا تكون فيه الإجابة إما بـ«نعم» وإما بـ«لا» لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي، فقضيتُ وقتًا طويلا في تأمل الأسئلة، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية ليست بنعم أو لا، وإنما تقع بينهما وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها، وقد تقرر بناء على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق بالدراسات العليا، ولكنني أخبرتهم أن الخلل ليس فيّ وإنما في الامتحان، فهو سخيف ولا يقيس قدرات الطالب الحقيقية، وأكدت لهم أن أدائي سيكون مختلفا تمامًا إذا ما وضعوا لي امتحانًا آخر بنفس الطريقة، وبالفعل قرروا أن يجرّبوا معي مرة أخرى فحصلتُ على أعلى درجة بين المتقدمين وكانت هذه هي أول مواجهة بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديتها وخيلائها.

المسيري كان يريد أن يثبت لواضعي الامتحان أن لديهم خللا في التقييم، وأن معاييرهم قاصرة، ويسهل التحايل عليها، والمرور

منها، فهو يدرك أن هناك «حقائق كاذبة» بمعنى أنها حقائق غير مزيفة لكنها ليست كاملة، فالحقيقة الكاذبة هي حقيقة جزئية، ومن ثم يمكن توظيفها لتبرير أي سلوك مهما كان ظالمًا.

من هذه الفكرة انطلقت رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية، فهو يبحث عن الإجابة الكاملة، والحقيقة غير الملفّقة، ولا يخشى من طرح الأسئلة، ولا يملّ من البحث عن الأجوبة، وهذا ما فعله في موسوعته الأهم عن «اليهود واليهودية والصهيونية» التي حاول أن يكشف فيها تلك «الحقائق الكاذبة»، وقد ظل ٢٤ عامًا يجهّز موسوعته الكبرى منذ أن بدأ في كتابتها عام ١٩٦٤ حتى سلّمها للناشر عام ١٩٩٨، وحين صدر أول أجزاء الموسوعة في عام ٧٥ لم يلقَ الاحتفاء الذي يليق بالجهد المبذول فيه، لأن النظام الحاكم آنذاك كان قد بدأ طريقه نحو تطبيع العلاقات، وهذا النوع من الكتابات يزعج السلطات!



٣٠ عامًا من العزلة

«١»

هـو عـالم أكـثر مـن كونـه كاتبًـا، ومفكـر أكـثر منـه باحثًـا، لكـن مؤلفاتـه وحدهـا جعلتـه واحـدًا مـن أوليـاء الكتابـة الصالحـين.

إنـه الدكتـور جـمال حمـدان صاحـب ملحمـة «شخصية مـصر»، و«اليهـود أنثربولوجيًـا»، و«اسـتراتيجية الاسـتعمار والتحريـر»، و«٦ أكتوبـر في الاسـتراتيجية العالميـة»، وغيرهـا مـن المؤلفـات التـي تُـعَدُّ مراجـع مهمـة وفـذّة.

لكـن رغـم كـثرة مؤلفاتـه وأهميتهـا فإنـه لم يتكسـب منهـا، فقـد عـاش زاهـدًا، يكفيـه كـوب لـبن وكـوب زبـادى وكـسرة خبـز، ويجلـس في الصيـف مرتديًـا «بنطلـون وفانلـة»، وفي الشـتاء يرتـدى «روب» قديمًـا أحمـر اللـون، فـوق البيجامـة، وبيتـه لا يوجـد بـه قطـع أثـاث إلا في أضيـق الحـدود، فالصالـون بسـيط والسـتائر باليـة، والأرضيـة مـن الخشـب، والحوائـط معلقـة عليهـا ورقـة لـ«مـصر للطـيران» ومذيـاع أثـري، ومجموعـة مـن الكتـب -التـي توجـد في سـحارة، وليسـت مكتبـة- والصحـف التـي يقـوم بقراءتهـا بشـكل منتظـم.

لكـن رغـم هـذه الحيـاة التـي يصعـب تصويرهـا وتصوّرهـا فـإن جـمال لم يلهـث خلـف أضـواء الشـهرة، بحثًـا عـن المـال، ولم يتسـلل دخـول التاريـخ مـن الأبـواب الخلفيـة، ولم يحـاول التسـويق لنفسـه مـن خـلال وسـائل الإعـلام، ولم يكـن يقبـل المسـاعدة مـن أحـد أيًـا كانـت درجـة حبـه وتقديـره لـه، لذلـك لم يـتردد أن يقطـع علاقتـه

بالكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، الذي كان واحدًا من أقرب الناس إلى قلبه، عندما كتب يطالب المسؤولين عن جامعة القاهرة بإعطائه مقابلا ماديا محترمًا يكفل له حياة كريمة، وعندما أرسل إليه الأستاذ هيكل التليفزيون الفرنسي لعمل لقاء معه بمقابل مادي كبير يصل إلى آلاف الدولارات رفض عمل اللقاء لشعوره أنه نوع من المساعدة من هيكل له بطريقة غير مباشرة.

وحين ذهب إليه الأستاذ هيكل وطرق باب بيته دون ميعاد سابق، لم يفتح له الباب، وبعدها أرسل إليه الأستاذ برقية جاء فيها: «لم أتجاسر هذه المرة أن أطرق بابك على غير موعد، وهكذا إني أكتب إليك لأقول إننا عدنا إلى القاهرة بعد غياب أسابيع، وكما اتفقنا قبل أن أسافر فإني أترك لك اختيار الوقت الذي تراه مناسبًا لكي نلتقي مرة أخرى. ولست أعرف المواعيد المناسبة لك في الأسبوع القادم الذي يبدأ من السبت الأول من يونيو، لكنه سوف يسعدني إلى أبعد حد أن أسمع منك، ومع التحية أرجوك أن تقبل صادق الود والتقدير».

«٢»

قليلون مَن اخترقوا حاجز صمته، وعبروا باب شقته، ورأوه في سنوات عزلته، وجلسوا في صحبته، وتحدثوا معه خلال ثلاثين عامًا قضاها بمفرده.

لذا الكتابة عنه مغامرة، وقراءة كتبه تحتاج إلى مثابرة، والجمع بينهما يحتاج إلى عُزلة تجلس فيها وحيدًا تتأمل وتفكر، وتفسر لتكتشف شخصية الرجل الذي كشف لنا «شخصية

مصر» ذلك الكتاب الذي ارتبط باسمه.

إنه العالم والمفكر جمال حمدان الذي وُلد في ليلة النصف من شعبان يوم الأربعاء ٤ من فبراير عام ١٩٢٨.

هنا في قرية ناي، إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية، وضعت زوجة الأستاذ صالح مدرِّس اللغة العربية مولودها الرابع جلال الذي كانت تناديه أسرته باسم «لولو» على سبيل التدليل، وكانت تطلق عليه جارته الإيطالية اسم «جمال»، وحين ذهب لتحرير استمارة امتحان الشهادة الابتدائية اكتشف أن مسؤول السجل المدني أخطأ وكتب «جمال محمود صالح» بدلا من «جلال محمود صالح» وعلم والده بما حدث وحاول تغيير اسم ابنه؛ نظرًا إلى أن لديه ابن آخر يدعى «جمال الدين»، لكن جهوده باءت بالفشل ليصبح لديه «جمال الدين وجمال».

لكن جمال واحد فقط هو الذي سيخلّد اسم عائلته إلى الأبد، لكنه سيحيا وحيدًا في مجتمع لا يقبل العباقرة ولا يُفسح لهم المجال، لذلك قرر منذ البداية أن لا يكون شبيهًا بأحد، وكتب على حياته بخط عريض «ممنوع الاقتراب أو التصوير»، وكان دقيقًا حين شخّص مشكلة الإنسان المصري بقوله: روح السماحة والدماثة، تلك المقولة واحد من أخطر عيوب مصر، وهي أنها تسمح للرجل العادي المتوسط، بل للرجل الصغير، بأكثر مما ينبغي وتفسح له مكانًا أكبر مما يستحق، وفي الوقت نفسه تضيق بالرجل الممتاز، إذا لم يكن في توسطها ووسطيتها، وأفضل مكان له خارجها، فشرط النجاح في مصر أن يكون اتباعًا لا إبداعيًا، وواليًا لا معارضًا.

في الثالثة والنصف من عصر يوم السبت الموافق ١٧ أبريل عام ١٩٩٣ شعر سكان العقار ٢٥ بشارع «أمين بك الرافعي» في الدقي برائحة «حريق» هائل تخرج من الشقة رقم واحد، فسارع أحد الجيران نحو عساكر الأمن الموجودين أمام البيت المجاور رقم ٢٣ الذي كان يسكن فيه فاروق سيف النصر وزير العدل آنذاك، وبالفعل جاء الحراس وكسروا باب البيت -الذي لم يُفتح طوال ثلاثين عامًا إلا مرات معدودة وبمواعيد محددة وبطَرْقَات مميزة- بمساعدة بعض الأهالي ليجدوا هرم الجغرافيا الأكبر في تاريخ مصر الدكتور جمال حمدان وقد سقط على الأرض محروقًا!

بادر أحد الأشخاص بالاتصال بمطافئ وإسعاف الدقي ليبلغ عن احتراق رجل في شقته، وبعد دقائق معدودة حضرت المطافئ، ثم بعد نصف ساعة جاءت سيارة الإسعاف، وليتها ما جاءت، لأن السادة المسعفين بعد أن حملوا الجثة إلى خارج الشقة ألقوا بها على الأرض عندما تأكدوا أن الرجل قد مات وبالتالي خرج عن دائرة اهتماماتهم! وقالوا لجيرانه الذين ازدحم بهم مدخل العمارة: «اتصلوا بقسم الشرطة؛ هو المسؤول عن الموتى» وتركوا جثته على الأرض وذهبوا، ليعيش العالِم الكبير غريبًا -بل مُهانًا- في وطنه حيًّا وميتًا! ربما لو كان لاعبًا أو راقصة لقامت الدنيا لرحيله، لكن عمومًا «هيّ دي مصر يا جمال»!

رحل جمال حمدان بعد أن قضى ثلاثين عامًا بمفرده دون أنيس أو جليس بعد أن قرر أن يعتزل النساء أيضًا؛ فلم يتزوج من

الإنسانة التي أحبها في بريطانيا وتُدعى «وليما» وظلت تلازمه في كل شيء طوال سنوات الجامعة وكانت تدرس علم المصريات بنفس الجامعة التي يدرس بها لكنها لم تتقبل فكرة أن تعيش معه في مصر فعاد وتركها -على حد تعبير أخيه الدكتور عبد الحميد حمدان- ودخل عزلته ولم يفكر في الخروج مرة أخرى لصخب الحياة، بل قال بوضوح في أحد حواراته: «لن أخرج حتى ينصلح حال المجتمع، ولا أعتقد أن هذا سيحدث»، ربما لم يكن الدكتور حمدان في حاجة إلى مجتمع لا يحتفي بالعباقرة، لكن المؤكد أن المجتمع كان في أشد الحاجة إليه ليهديه إلى الطريق الذي يعرف نهاياته بدقة.

رحل عبقري الزمان والمكان دون أي اهتمام من مسؤولي الدولة الذين ذهبوا في هذا اليوم إلى تركيا للقيام بواجب العزاء في رئيس وزرائها في الوقت الذي كان فيه عالمنا الجليل مُلقًّى على الأرض ينتظر من يحمله إلى قبره، لتخرج جريدة «الأهرام» الغرّاء في اليوم التالي تعلن الحداد ثلاثة أيام لا لوفاة واحد من أساطير العلم في مصر وإنما لوفاة سيادة رئيس وزراء تركيا، أما التليفزيون المصري الرائد فلم يذكر في نشرة السادسة ولا حتى التاسعة في نفس اليوم أو حتى في اليوم التالي خبر وفاته! في حين أنه في بلاد أخرى يقطع التليفزيون إرساله لمن أقل منه منزلة. ربما لو نحّى هذا العالِم علمَه جانبًا وسخّر كل جهوده واستثمر كل مواهبه في العلاقات العامة والدعاية لنفسه، كان له شأن آخر وعرفه جيرانه الذين يسكنون أمامه والذين حين سألتهم عنه قالوا بدهشة: «معقولة كان في عالم كبير ساكن قصادنا»!



مُلحد على سجادة الصلاة!

«١»

«إذا كان مصطفى محمود قد ألحد فهو يلحد على سجادة الصلاة»!

هكذا وصفه الشاعر كامل الشناوي، وأضاف: «كان يتصور أن العلم يمكن أن يجيب عن كل شيء، وعندما خاب ظنه مع العلم أخذ يبحث في الأديان بدءًا بالديانات السماوية وانتهاء بالأديان الأرضية ولم يجد في النهاية سوى القرآن الكريم».

قرأ الشناوي صديقه مصطفى من الداخل قبل أن تظهر هذه الحقيقة للعوام والعيان، فقد رحل الشناوي قبل سنوات من انتهاء رحلة مصطفى محمود من الشك إلى اليقين.

تلك الرحلة التي استمرت ثلاثين عامًا كاملة، قضاها في البحث عن الله! قرأ خلالها عن البوذية، والبراهمية، والزرادشتية، ومارس تصوف الهندوس، لكن رغم كل ذلك لم يُلحد بقدر ما كان يبحث عن إجابات جديدة لأسئلة قديمة، لم يكن راغبًا في أسئلة نمطية وإجابات مكررة.

كان مفكرًا بحق، ونحن لا نحتفي بالمفكرين، ولا نُنزلهم منازلهم، ولا نقتفي آثارهم، هو نموذج لم نعهده.

لم يكن تصنيفه سهلا بل كان عصيًّا على التصنيف، ونحن نعشق القوالب الثابتة، ولا نحب أن نرهق أنفسنا عناء التفكير في من هم خارج الإطار والنمط المتكرر، وهذه هي معضلة

مصطفى محمود الذي لم تكن هذه القوالب ترضيه أو تُلجمه أو تحدد مساره.

نحن اعتدنا على المفكر التليفزيوني، ذلك المفكر الذي لا نجد له أي إنتاج فكري سوى تفكيره أمام كاميرات التليفزيون، ولم يُضبط يومًا يفكر خارج الاستوديوهات!

لذلك عجزنا عن فهم الدكتور مصطفى محمود، الرجل الذي وهبَ حياته باحثًا حقيقيًا عن سر الحياة، وما بعد الموت، فصار من رجل ضلَّ طريقه إلى عالم يسير الناس خلفه.

وقد ظهر ذلك جليًا في برنامجه الأشهر «العلم والإيمان». في هذا البرنامج وجد مصطفى محمود ضالّته في التواصل مع البسطاء، ووجد فيه البسطاء رجل العلم الذي يثبتهم على طريق الإيمان الذي يبحثون عنه.

المدهش أن هذا البرنامج الأشهَر في تاريخ التليفزيون المصري ما كان ليظهر لولا الصدفة!

فحين عرض مصطفى محمود الفكرة على مسؤولي التليفزيون تم رصد ميزانية محددة من أجل إنتاج كل حلقة وهي ثلاثون جنيهًا فقط لا غير! وبالتالي لم يكن ممكنًا خروج هذا البرنامج إلى النور، وتوقّف المشروع قبل بدايته، وكاد ينتهي لولا أن أحد رجال الأعمال تحمَّس للفكرة وقرر أن يتبرع لإنتاجها!

وظهر البرنامج بموعده الثابت مساء الإثنين بموسيقى الناي الحزينة التي ما زالت عالقة في الآذان، وبصوره التي لم تغادر الأذهان، وبمعلوماته الفياضة التي ارتبطت وتربَّت عليها أجيال كثيرة، لكن بعد سنوات من النجاح الصاخب -وغير المعتاد- صدر القرار بوقف البرنامج بقرار من وزير الإعلام، وقيل إن السبب ضغوط من العدو الصهيوني، لكن ربما رأى النظام أن

شعبية مصطفى محمود تمثل خطرًا عليه ليس لأنه ينافسه لكن لأن النظام لم يكن راغبًا في ظهور زعامات فكرية تحض الناس على التفكير.

«٢»

كان يقف طويلا أمام أجساد الموتى داخل المشرحة، ويعشق تشريح الجثث لدرجة عجز أقرانه وأساتذته عن فهمها!

فلم يذهب إلى كلية الطب طامعًا في لقب «الدكتور فلان» كسائر أقرانه، لكنه حين اختارها أراد أن يُشرِّح النفس البشرية ليعلم ما تُخفيه، ويمارس هوايته التي مارسها مذ كان طفلا في بيت أبيه، وقرر أن يُنشئ داخل المنزل معملًا صغيرًا يصنع فيه الصابون والمبيدات الحشرية ليقتل بها الحشرات، ثم يقوم بتشريحها!

لم تكن علامات النبوغ ظاهرة لأساتذته قدر ما كانت علامات الاختلاف والتفرد بارزة كالشمس في وضح النهار، فلم يكن طالبا عاديًا -ونحن نفضِّل العاديين- حتى يسهل على الأساتذة تقييمه وتقويمه.

فقد بدأ حياته متفوقًا في الدراسة، حتى ضربه مدرس اللغة العربية، فغضب وانقطع عن الدراسة لمدة ثلاث سنوات إلى أن انتقل هذا المدرس إلى مدرسة أخرى فعاد لمتابعة الدراسة.

وحين مرض والده ثم توفي بعد أن أصيب بالشلل، قرر مصطفى أن يحقق حلم والده ويصبح طبيبًا، وأن يتخصَّص في الأمراض الصدرية، فنجح وتفوق والتحق بكلية الطب، وتخرج فيها عام ١٩٥٣، وعاش في «ميت الكرماء» بجوار مسجد

«المحطة» الشهير الذي يعد أحد مزارات الصوفية الشهيرة في مصر، مما ترك أثره الواضح على أفكاره وتوجهاته.

لكنه بعد سبع سنوات قرر أن يتفرغ للكتابة وشق له طريقًا أعْجَزَ مَن يأتي بعده عن استكماله، فألَّفَ ٨٩ كتابًا منها الكتب العلمية، والدينية، والفلسفية، والسياسية، والاجتماعية، إضافة إلى المسرحيات، وأدب الرحلات، وتميز أسلوبه بالجاذبية مع العمق والبساطة.

«٣»

حين عرض عليه الرئيس السادات أن يكون وزيرًا رفض قائلًا: «أنا فشلت في إدارة أصغر مؤسسة وهي الأسرة.. فأنا مُطلق.. فكيف بي أدير وزارة كاملة؟!».

كان صادقًا مع نفسه، ويدرك مَواطِن قوته، ولا يخجل من الاعتراف بمَواطِن ضعفه، فقد تزوج مرتين، الأولى انتهت بعد ١٢ عامًا، والثانية لم تستمر سوى أربع سنوات، وفي الحالتين رأى أنه لم يُحسن إدارة مؤسسة الزواج.

لم يُعلن يومًا أنه يملك الحق المطلق، ولم يدّعِ أنه كان على صواب طوال الوقت، بل ظل طوال حياته يعترف بأخطائه، ويسجلها في كتاباته كي يتطهر منها، وكي لا يكررها أحد بعده، لذا كان يقول: «لست في موضع اتهام، وأن اعترافي بأني كنت على غير صواب في بعض مراحل حياتي هو ضرب من ضروب الشجاعة والقدرة على نقد الذات، وهذا شيء يفتقر إليه الكثيرون ممن يصابون بالجمود والغرور».

المشكلة لم تكن في شخص مصطفى محمود بل كانت أغلب الأحيان عند مريديه وخصومه، فالبعض حمّله أكثر مما يحتمل،

أحيانًا بالتهويل في تقديره -لا أقول تقديسه- والبعض الآخر بالتهوين من قدره، والتشكيك في رجاحة عقله، ومحاولة إلصاق كل التهم به، لكنه في الحالتين خرج فائزًا، فقد ظل الكاتب اللغز الذي يبحث الجميع عن حل قاطع مانع يصلون به إلى حقيقة هذا الرجل الذي شغل الدنيا بأفكاره.

فهو لم يملك سوى أفكاره، وشهرته كلها حققها بفضل هذه الأفكار التي بعضها كان صوابًا، وبعضها جانبه فيها الصواب، لذا فهو مُتهم دائمًا بالاختلاف، ومضبوط بأداة الجريمة وهي القلم، وعليه شهود جاهزون وهم خصومه في الأفكار.

لو لم يجد مصطفى محمود شيئًا يبحث عنه ربما مات كمدًا، لذا كان يردد دائمًا: «أريد لحظة انفعال.. لحظة حب.. لحظة دهشة.. لحظة اكتشاف.. لحظة معرفة فمن دون هذه اللحظات لا أجد لحياتي معنى، فحياتي من أجل أكل العيش لا معنى لها».



أولياء بلا أضرحة

«إنني ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأستمع.. وأناقش.. وأتساءل.. وأشك.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

محمود عوض



الحفّار!

«١»

وصل صالح إلى مقهى «بترو» في ذلك اليوم مبكرًا، فوجد أمامه نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأمامهما البحر بكل امتداده، والكورنيش خاليًا من المارّة ومن السيارات في ذلك الوقت من الصباح، وفي المقهى عدد من الرواد لا يزيد على أصابع اليدين، وعندما اقترب منهما كانا غير منتبهين وكل منهما يضع تحت يده فوق المائدة عددًا من مجلة «الكواكب» التي كانت قد صدرت في هذا اليوم.

ألقى صالح بالتحية، فجاءه الرد فاترًا، وجلس إليهما فإذا بالفتور يسرى إليه، ظن أن ثمة ما يشغلهما، فهمّ بالانصراف، فإذا بتوفيق الحكيم يهتف به غاضبًا: «إيه اللي انت عملته ده يا أستاذ؟!».

بَدَت كل علامات الدهشة على وجه صالح قبل أن يقول مخاطبًا الحكيم: «هو أنا عملت إيه يا أستاذ؟!».

فصاح الحكيم قائلا: «ليه سمّيت اللي انت كاتبه ده كاريوكا؟!».

فرد صالح مقاطعًا وهو مذهول: «لأنها تحية يا توفيق بك».

فإذا بنجيب محفوظ يقاطعه والأسى يقطر من بين شفتيه: «طب ما تسميها قصة راقصة يا أخي»!

نظر إليهما صالح وهو لا يعي ما يسمع، وانهال عليه

التقريع من كليهما، لكنه أنصت في إجلال ليتعلم درس عمره من العم نجيب محفوظ الذي مال نحوه وقال له: اللي انت كاتبه ده أدب.. أنا لو سمّيت «اللص والكلاب» محمود سليمان -الذي أطلقوا عليه لقب السفاح في الستينيات- ماكانتش بقت رواية!

ثم أشعل العم نجيب سيجارة حان موعدها، وقال في ابتسامة حانية: «وبرضه كانت حتبقى كاريوكا، مش حد تاني»!

لقد منحه سر الصنعة، وتعلم صالح مرسي الدرس الأهم في عمره، وربما كان ذلك اليوم هو مفترق الطرق الذي غيّر مجرى حياته لينتقل من قاصٍّ جيد إلى صانع أدب جديد.

كانت مذكرات كاريوكا هي البداية، لكن صالح مرسي قاوم كتابتها كثيراً، فقد كانت المرة الأولى في نهاية الخمسينيات حين ذهب إلى كاريوكا وقال لها: «نفسي أكتبك» فوافقت، وهرب ونسيَ أو تناسى، ثم عاد وكرر الطلب بعد تسع سنوات، فوافقت ثم اختفى للمرة الثانية، لكنه عاد بعد أسابيع قليلة ليبدأ معها تسجيل رحلة حياتها في عشرين ساعة، لتُنشر في مجلة «الكواكب» منذ قرابة نصف قرن، لكن المدهش أن هذه المذكرات لم تُنشر في كتاب، بل إنها اختفت!

نعم، اختفت، فحين ذهبتُ إلى دار الكتب والوثائق وجدتُ أن الأعداد التي نُشرت فيها المذكرات في «الترميم» -باستثناء أعداد قليلة- وبالتالي لا يمكن الاطلاع عليها أو تصويرها، أما في مكتبة الإسكندرية فلم أجد سوى ست حلقات فقط، فاتجهتُ إلى سور الأزبكية وسور السيدة زينب حتى عثرت على أجزاء من هنا وأجزاء من هناك، وبعد رحلة بحث طويلة وصلت إلى المذكرات وحصلت عليها كاملة بكل ما فيها من أسرار ومفاجآت، وأعدت

نشرها في جريدة «التحرير».

«٢»

تعلم صالح الدرس من نجيب محفوظ، لكن قبل سنوات كان قد تعلَّم درسًا آخر حين تعرف على يوسف إدريس!

فحين هبط صالح إلى القاهرة في العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٥ قادمًا من الإسكندرية لم يكن قد أتم عامه السادس والعشرين، ولم يكن يدري ماذا يفعل، فقد وُلد في مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية في فبراير عام ١٩٢٩، وعمل بحَّارًا، لكنه اكتشف أنه لم يعد من الممكن أن يستمر في عمله في البحر، وأدرك أنه كان يراقب الحياة من حوله كأنه يشاهد فيلمًا أو مسرحية، فقد كان يشاهد البحر لكنه لم يكن يومًا جزءا منه.

شخص واحد فقط كان قد تعرف عليه، وعرض عليه مساعدته، كان هذا الشخص هو الفذّ يوسف إدريس.

كان إدريس أول من قرأ لصالح قبل أن يحضر من الإسكندرية وأشاد به وقال له: قرأت «زقاق السيد البلطي»، و«الحياة تسير»، و«خمر وناس»، و«الأمواج»، وحين قرأتها تغيَّر رأيي فيك تمامًا، فأنت لست بكاتب قصة فقط، ولا أنت مُجيد فقط، ولكن مستواك غير عادي في الكتابة، أنت فنان.

كانت الخطابات المتبادَلة بين يوسف إدريس وصالح مرسي لها الأثر الأكبر في قراره بترك العمل في البحر، والالتحاق بالعمل في مهنة أخرى لكنها أيضًا متلاطمة الأمواج.

كانت كلمات يوسف إدريس بمثابة نقطة تحول كبيرة في حياة صالح مرسي: فقد جعلته أكثر ثقة بما يكتب، خصوصًا

أن إدريس كان حادًا في نقده، لاذعًا في رأيه، وبالتالي فشهادته وسام.

«٣»

وجد صالح مرسي نفسه في أدب الجاسوسية، فقد برع وتألق وبزغ نجمه في هذا النوع من الأدب الذي لم يكن معروفًا قبله، فهو الأب الشرعي لهذا النوع من الأدب الذي صار في ما بعد واحدًا من أكثر الأعمال جذبًا للقراء والمشاهدين!

فبعد أن كتب قصة حياة «كاريوكا» ومن بعدها ليلى مراد وجد أن عليه أن يتفرغ للأدب، ولكن يجب أن يبتكر نوعًا جديدًا لم يعهده القراء، فكتب قصته البديعة «الصعود إلى الهاوية» في نهاية السبعينيات، وفي مطلع الثمانينيات كتب رائعته «دموع في عيون وقحة»، وبعدها كتب «الحفّار»، و«رأفت الهجان» الذي يعد أشهر أعماله، ومن أشهر الأعمال في تاريخ الدراما التليفزيونية.

أهم ما ميّز العم صالح مرسي أنه شق طريقًا لم تعرفه الكتابة في مصر من قبل، وسار فيه بمفرده ثم جاء الناس بعده، فصارت أعماله من كلاسيكيات الدراما وظلت من علامات شهر رمضان لسنوات طويلة، وفي ذات الوقت صارت لها مكانة أدبية رفيعة المستوى، لكن الأهم أن قصصه ليست من وحي خياله وإنما هي من وحي بطولات حقيقية وأبطال حقيقيين من لحم ودم، من بينهم جمعة الشوان أو أحمد الهوان البطل الذي هان على الجميع، وعاش زاهدًا يسكن في شقة متواضعة، لكنه لم يسأل الناس إلحافًا رغم مرضه وضعف دخله، وعدم سؤال المسؤولين عنه، لكن «هيّ دي مصر يا عبلة» مثلما قالها عمنا صالح مرسي!

الجبل

«١»

حين أطلق الرصاص على جمال عبد الناصر في حادثة المنشية بالإسكندرية، استدعى علي أمين رئيس تحرير «أخبار اليوم» آنذاك، الصحفي الشاب فتحي غانم، وقال له: ألست قصّاصًا؟ نريدك أن تذهب إلى بيت المتهم بالاعتداء على عبد الناصر في حي بولاق وتكتب لنا صورة قلمية لما تراه. وراح غانم ووصف ما شاهده ببساطة ووضوح وواقعية: «سُلّم في بيت قديم متآكل، حجرة بها سرير فوقه مفرش كاروهات، مشنة عيش، ترابيزة خشب متواضعة، امرأة صغيرة السن تحمل طفلا رضيعا في عيونها ذهول وخوف شديدين، ومن حولها أعداد ضخمة من رجال الأمن».

هاجت الدنيا وماجت بعد أن نُشرت تلك الصورة القلمية في «أخبار اليوم» -على حد تعبير سيدة الكتابة سناء البيسي- لدرجة أن عبد الناصر أشار إلى أن ما كتبه ذلك الصحفي قد أثار التعاطف المبالَغ فيه مع المتهم!

المدهش أنه قبل ثلاثين عامًا وتحديدا عام ١٩٢٤ كانت الأجواء متشابهة إلى حد التطابق.

فقد أطلق طالب بكلية الطب النار على سعد زغلول في أثناء مروره في الإسكندرية، وكانت هذه الحادثة سببًا رئيسيًا في تعلُّق الشعب الشديد بزعيم الأمة الذي شعروا أنهم كادوا

يخسرونه بسبب مختل.

وفي نفس اليوم الذي أطلق عليه «يوم الهول» رحل أحد أعلام الأدب، مصطفى لطفي المنفلوطي.

وقبل شهور تم إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا، وتحديدًا في شهر مارس، وتمت أول انتخابات في ظل دستور ١٩٢٣، وحصل حزب «الوفد» على الأغلبية البرلمانية وكذلك في مجلس الشيوخ، وتشكلت وزارة سعد زغلول.

في هذه الأجواء شديدة السخونة وُلد صاحب «الساخن والبارد» محمد فتحي غانم يوسف دياب.

«٢»

فتحي غانم كان جبلا بحق، فعلى الرغم من كثرة ما تعرَّض له من عسف وقهر وظلم وغبن، لم يفقد ظله.

فلا تندهش عندما تعرف أنه تم حذف ٢٥٠ صفحة من إحدى رواياته، ومن أخرى ١٣٠ صفحة، ومن ثالثة ٥٠ صفحة، ومن رابعة ٣٠ صفحة -مثلما كشف الناقد شعبان يوسف- وهكذا ظل دائمًا يتعرض للاضطهاد ومحاولات الإبعاد والتضييق والمضايقة، ربما لشعور البعض بخطورة ما يكتب.

فحين صدرت روايته «الرجل الذي فقد ظله» قيل إن بطلها الحقيقي الأستاذ محمد التابعي، بل إن التابعي ذاته اتصل به عقب صدور الرواية وقال له: بعض الأصدقاء قالوا لي إنك كتبت رواية عني!

ونفس الشيء تكرر في روايته «زينب والعرش» التي تشعر أن بطلها الحقيقي هو الأستاذ مصطفى أمين. وقيل أيضًا إن رواية

«تلك الأيام» تعبّر عن شخصية الأستاذ هيكل. بل قيل إن رواية «الأفيال» هي تعبير عنه نفسه. أما الشخصية التي أوحت إليه برواية «حكاية تو» فهو اليساري المعروف شهدي عطية وما تعرض له في السجن، لذلك ظلت الرواية ممنوعة ١٣ عامًا دون إبداء أسباب!

لكن رغم هذا التماسّ الشديد بين أبطال رواياته ونجوم الصحافة وأعلامها فإن فتحي غانم كان دائمًا ينتصر للفن والأدب وإلا ما بقيت رواياته حيّة بيننا.

فقد ظل دائمًا يحتفظ بمساحة خاصة لنفسه ولأدبه، حيث يجلس منفردًا بالقارئ دون حسابات أو حواجز يرسم له الواقع كما يراه، ويحلله ويفسره ويعطيه رؤية كاملة ومكتملة لما يجري حوله.

صورة قد لا ترضَى عنها السلطة، وقد تعاقبه بسببها، لكنه لم يكن مشغولا برضا السلطة أو سخطها، هو فقط يخاطب الناس، ويرى أن أي أدب صادق هو وثيقة تعبر عن المجتمع وتكشف خباياه، لذلك فأدب فتحي غانم من «لحم ودم»، فكل من كتب عنهم تشعر أنك تعرفهم، بل ربما لا تبذل جهدًا لتحدد مَن هم ومواقعهم، وربما لهذا السبب لم ينصفه أحد، ولم يحصل على ما يستحق وتعرّض لكل محاولات التجاهل، لكنه رغم ذلك صنع مجده من أدبه رغم أنه تولى أعلى المناصب الصحفية سواء كرئيس تحرير أو رئيس مجلس إدارة لعدد من الصحف والمجلات منها «الجمهورية»، و«روزاليوسف»، و«صباح الخير»، علاوة على وكالة أنباء الشرق الأوسط.

«٣»

لم يكن غانم على كثرة المناصب التي تولاها معبرًا عن أحد سوى نفسه، فلم يكن متحدثًا عن السلطة، ولم يشغل نفسه بمعاداتها، لذلك نجا من الاعتقال!

فذات يوم نشرت جريدة «الأهرام» في أثناء ثورة التصحيح -كما أطلق عليها الرئيس السادات- تسجيل مكالمة هاتفية بين علي صبري أمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي حينذاك، ومحمد فائق وزير الإعلام في ذلك الوقت، وكان هناك خلاف مع السادات حول الوحدة مع ليبيا، وكان علي صبري يقول: الراجل عايز يعمل إيه؟ مافيش حد يكتب في البلد؟ فردّ محمد فائق: نكلم فتحي نخليه يكتب؟ فأجابه علي صبري: هو فتحي غانم ده بيعمل حاجة.. دا آخر مَن يعلم في المسائل دي.

لولا هذه الكلمة التي قيلت بالصدفة لألقي فتحي غانم في غياهب السجون، رغم أنه كان رئيسًا لمجلس إدارة دار التحرير -«الجمهورية»- حينذاك.

فتحي غانم واحد من جيل جبار مليء بجبابرة الأدب والصحافة، من نجيب محفوظ ويوسف إدريس إلى يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، ومن محمد التابعي وهيكل إلى مصطفى وعلي أمين، لكن هذا الجيل كان يجمعه شيء آخر لم يكن يدركه فتحي غانم إلا حين زار موسكو بصحبة خمسة من كبار مبدعي مصر آنذاك ولاحظوا حجم الحفاوة الشديدة والاحترام الرسمي، كأنهم رجال دولة في زيارة رسمية وليسوا أدباء ومثقفين.

شغلت هذه الزيارة بال فتحي غانم كثيرًا، وكان حريصًا على الاستفسار عنها من أركان السفارة المصرية في موسكو، وقد وجد الإجابة التي لم يكن ينتظرها، فقد قيل له: إن السوفييت تعاملوا معكم باعتباركم ضباطًا في المخابرات المصرية!

ويروي فتحي غانم هذه الواقعة ضاحكًا: «كنا سعد الدين وهبة، وكامل زهيرى، وحسن فؤاد، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وأنا. كانت بيننا اختلافات فكرية كثيرة، لكن شيئًا واحدًا فقط جمع بيننا، هو أننا كنا جميعًا طولا بعرض، وكل واحد يرتدي بدلة كاملة، ورابطة عنق فاخرة، ويضع على عينيه نظارة شمس سوداء من ماركة بيرسول. ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور المسؤولون السوفييت أننا من رجال المخابرات، لأن صورة كل منهم لم تخرج وقتها عن الصورة النمطية لرجل المخابرات».

«٤»

المدهش أن أغلب أبطال روايات فتحي غانم أطلق عليهم نفس الاسم وهو «يوسف»، وقيلت أسباب كثيرة تفسر ذلك، بل إن فتحي غانم نفسه كان في كل مرة يفسر هذه الظاهرة بسبب مختلف!

فقيل إن السبب في ذلك هو تأثره بالمفكر الكبير توفيق الحكيم الذي كان أغلب أبطال رواياته يحملون نفس الاسم وهو «محسن»، وقيل إنه بسبب تأثره بقصة سيدنا يوسف، عليه السلام، وقال البعض لأن جده اسمه يوسف، وقيل أيضًا إنه كان له أخ توفي اسمه يوسف، وكان مرتبطًا به فقرر أن

يسمي كل مَن يحبهم من أبطال رواياته «يوسف»، وهناك مَن قال إن السبب في ذلك هو كسل الكاتب في البحث عن اسم جديد!

أشعر كلما قرأت روايات الجبل فتحي غانم أنه يحمل براءة الأطفال وجرأتهم في الانتقاد دون حسابات ولا تعقيدات ولا محاولات تجميل أو افتعال.

فقد دخل فتحي غانم في معارك كثيرة وكبيرة مع كبار المبدعين بسبب جرأته المبالَغ فيها -أحيانًا- فهاجم إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وقال مخاطبًا يوسف السباعي: «إن العلب الباهظة التي يضعها لتغليف كتبه من الأفضل أن تصبح علب شوكولاته»!

أفكار ضد الرصاص!

«١»

وليٌّ من أولياء الكتابة لكنه لا ينتظر مريدين!

يكتب كأنه يلعب، لديه خفة راقص باليه، ورشاقة لاعب تنس، وجاذبية نجم، وعقلية مفكر، وقلم ناقد، ورؤية فيلسوف لكنه لم يتفلسف أبدًا.

يقول دائمًا: «إنني ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأستمع.. وأناقش.. وأتساءل.. وأشك.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

هذا هو محمود عوض، مختلف لكن لا خلاف عليه، متمرد بقلب طفل، فذ في تواضعه، عبقريّ في بساطة تعبيراته، كلماته صادمة لكنها مُحبة، وصادقة، وعاقلة.

كتب «الحرب المستحيلة» لكن أسلوبه في الكتابة كان هو المستحيل ذاته، حاور أم كلثوم فأغضبها، وكان من أقرب الأحياء إلى قلب موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب لكنه حين كتب عنه كاد يخسره، وحين طلب منه صديق عمره عبد الحليم حافظ أن يكتب كتابًا عنه رفض.

رغم صداقته الحميمة بأغلب نجوم عصره «أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وتوفيق الحكيم وطه حسين وإحسان عبد القدوس» وغيرهم فإنه ظل نغمة مختلفة، وصوتًا منفردًا، فلم يجعل الصداقة تؤثر على الكتابة، ولم تتسلل علاقاته الشخصية

إلى كتاباته إلا ليعرف القارئ الحقيقة، فحين أجرى حوارا مع أم كلثوم سأله إحسان عبد القدوس رئيس تحرير «أخبار اليوم» في ذلك الوقت: «هل أطلعتَ أم كلثوم على الحوار قبل نشره؟»، فردّ على الفور: «منذ متى نسمح لأحد بالتدخل في عملنا؟»، غير أن إحسان عاجله بسرعة: «إنها ليست أي أحد، إنها أم كلثوم».

وافق عوض على عرض الحوار على أم كلثوم، وعندما زارها في منزلها أبدت اعتراضًا على جملة يفتتح بها مقدمة الحوار معها، فغضب وسألها: «مَن منّا يفهم في الغناء أكثر.. أنا أم أنتِ؟» فردت قاطعة: «أنا طبعًا»، فقال لها بسرعة: «إذن فالكتابة عملي، وأنا أفهمه جيدًا، ولن أغيِّر المقدمة».

لكن أم كلثوم هي التي غيَّرت طريقتها معه، وموقفها منه، واحترمت موهبته، وقدَّرت إخلاصه لعمله، وقدراته الخاصة، والاستثنائية، وامتثلت له.

«٢»

لكن قبل لقائه الأول مع أم كلثوم بقرابة ربع قرن كان عبد الحليم حافظ قد حسم قراره بالالتحاق بمعهد الموسيقى العربية قسم التلحين.

.. وكان محمد عبد الوهاب يقدم خامس أفلامه «موعد مع الحب» وغنّى فيه ثلاث أغانٍ هي «يا مسافر وحدك»، و«بلاش تبوسني في عنيّا»، و«رُدّ عليّا»، وظهرت معه لأول مرة الفنانة مديحة يسري.

.. وشاركت أم كلثوم في بطولة فيلم «عايدة» مع يحيى

شاهين وماري منيب، عن قصة عبد الوارث عسر، وكان الفيلم يمثل محاولة لصنع أوبريت عربي عن أوبرا عايدة، لكن التجربة باءت بالفشل.

.. وانتقل توفيق الحكيم ليعمل مديرًا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي في وزارة الشؤون الاجتماعية، لكنه استقال بعد ذلك.

.. وفي العام نفسه تم تعيين طه حسين مديرًا لجامعة الإسكندرية، إضافة إلى عمله الآخر كمستشار فني لوزارة المعارف، ومراقب للثقافة في الوزارة عينها.

.. وانتهت معركة العلمين بانتصار قوات الحلفاء، وصدر قرار بطرد أنور السادات من الجيش بتهمة العمالة مع قوات المحور.

في هذه الأثناء وُلد محمود عوض وتحديدًا في يوم الإثنين ٢٨ من ديسمبر عام ١٩٤٢ في مدينة طلخا بالدقهلية، وكان محبًا للقراءة منذ صغره، وكادت تتسبب في رسوبه في دراسته، لولا قطعه عهدًا لأبيه بأن يصير تلميذًا متفوقًا، وقد وفى بوعده، فقد أرسل كمال الدين حسين -وزير التعليم آنذاك- خطابا إلى والده يضم شيكًا بمبلغ ٢٥ جنيهًا لابنه المتفوق، سلمه الوالد لمحمود ورحل بعدها بيومين مطمئنًا على مصير ابنه.

وكبر محمود، والتحق بكلية الحقوق، ثم انطلق إلى «أخبار اليوم»، وبعد تخرجه رفض العمل بالنيابة العامة، مفضلا الاشتغال بالصحافة، وبعد ثماني سنوات من تخرجه أصبح نائبًا لرئيس تحرير «الأخبار»، وهو لم يكمل عامه الثلاثين.

ولكن الصدفة لعبت دورًا في نجوميته؛ فعندما تأخر أنيس منصور عن إرسال مقاله اليومي، الذي يُنشر في الصفحة الأخيرة من «أخبار اليوم»، وقرر عبد القدوس -وهو رئيس تحرير

المؤسسة العريقة آنذاك - تكليف هذا الصحفي الشاب بكتابة الصفحة الأخيرة وحده.

كان عقابا لمنصور الذي تسبب تأخره المتكرر في عدم إرسال الجريدة إلى المطبعة في الوقت المحدد، فأهدى إلينا هذا التأخير واحدًا من ألمع نجوم بلاط صاحبة الجلالة.

«٣»

لم أرَه يومًا، ولم تنشأ بيننا أي علاقة، لكنني أشعر بأنني مدين له بكل شيء، فلا أستطيع أن أكتب قبل أن أقرأ له، وربما أكون قد تأثرت به قبل أن أقرأ له حرفًا، وأحزن كلما تذكرت أنه كان بإمكاني أن أقابله وتقاعست عن المحاولة، مجرد شرف المحاولة كان يكفي، فلديَّ عدد هائل من الأسئلة كنت أود أن أطرحها عليه، ولا يعنيني أن أنشر إجاباتها، لكني كنت أريد أن أعلم وأتعلم من ناظر مدرسة في الكتابة.

محمود عوض لا يُعوَّض.

ربما أكون قرأت كتبه مرة واثنتين وثلاثًا، بل هناك كتب له قرأتها عشرات المرات لدرجة أني أحفظ مقاطع منها، وعلى رأسها كتابه الأروع «ممنوع من التداول» فلو لم يكتب محمود عوض سوى مقدمة هذا الكتاب لكان يكفيه، فهذا الكتاب لا بد أن يُدرَّس في الجامعات، ولا بد أن يقرأه الجميع، حتى يعلم الجميع حقيقة إسرائيل، وكيف تُدار من خلف الكواليس منذ اليوم الأول الذي عُقد فيه المؤتمر الأول الذي حضره ١٩٧ وفدًا من ١٥ دولة مختلفة وهم لا يعرف بعضهم بعضا ولكنهم جميعًا يمثلون جمعيات «حب صهيون»!

وكذلك كتابه الفذ «أفكار ضد الرصاص»، الذي يشرح فيه قصة أربع جرائم قتل، مع سبق الإصرار والترصد، قتل عمد، ومع ذلك يخرج الجاني بعد كل جريمة بلا عقاب رغم أن القتيل معروف، وأداة القتل مضبوطة، وسبب القتل واضح، والشهود موجودون، والقاتل معترف، ومع ذلك فالجريمة يتم تسجيلها ضد مجهول!

فالقاتل في كل مرة مجموعة من الأشخاص، لكن السكين تحملها يد واحدة لها تفكير السلطة، وأسلحة السلطة وجبروت السلطة، والقتيل هو «كتاب» مجرد حبر على ورق، لكن صدر ضده حكم بالإعدام، وهذا الحكم صدر ضد أربعة كتب لقاسم أمين والكواكبي وطه حسين وعلي عبد الرازق. ويفسر عوض في كتابه سر اغتيال هذه الكتب بالذات.

كُتب محمود عوض بمثابة شربة ماء في صحراء، فلا تَدعْها تفوتك.



النجم الذي هوى!

«١»

فجأة نزل إلى قنا شاب في رُفع بوصة الذرة، كأنه خيط حاد شُدّ بالشمع ليستعصي على القطع.

لا يغيِّر لغته حسبًا لنوعية الناس، وإنما يظلون ينظرون إليه في دهشة كأنه كائن فضائي غريب حطَّ بينهم فجأة بلغة فضائية لا يفهمونها ويتحدث عن مخلوقات أخرى مشابهة له، بينما أهالينا البسطاء يظلون أمامه فاغري الأفواه يتعجبون من معجزات الله التي أودعها خلقه.

إنسان رقيق مهذَّب، كأنه منسوج من حرير، وفي نفس الوقت بركان ثائر يقذف بالحمم دون توقُّف، فهو طفولي لكن تمتزج عبقريته بحب شديد للملاعبات والمداعبات.

عيناه حمراوان كأنه شرب لتوِّه برميل روم، سبابة يمناه طويلة، ومستعدة لتنغرس في عين كل من يقول كلمة ضد الأستاذ عباس محمود العقاد!

إنه يحيى الطاهر عبد الله، كما وصفه الخال عبد الرحمن الأبنودي، مذ رآه لأول مرة حضر فيها إلى بيته، ودَقَّ الباب، وقالت فاطمة قنديل، والدة الأبنودي: «عاوز إيه؟» فقال: «عاوز عبد الرحمن»، فسألته: «أنت مين؟»، فردّ: «جوليله يحيى الطاهر عبد الله»، فشدّت فاطمة قنديل «الشُّقاطة» ليدخل.

ومر يحيى الطاهر من الباب، واستقرّ في إحدى الغرف،

فدخل وقعد وولع سيجارة، وقرر أن لا يغادر هذا البيت أبدًا، دون أن يدعوه أحد أو يستأذن من أحد.

وجلس يحيى الطاهر، وحصل على حقوق لم يحصل عليها عبد الرحمن ذاته، لدرجة أنه كان يدخل في نقاشات عنيفة مع أبناء الشيخ الأبنودي الكبار، وينتقدهم علنًا حتى ضاقوا به، لكنه لم يكن يحسّ ذلك، فقد كان يعتقد أنه يرى الحقيقة، وعلى الجميع أن يروا ما يراه وإلا كانوا متخاذلين لا يبغون تطوير أنفسهم، وذهبت محاولات الخال لإسكاته سُدًى، بل إنه كان يتعجب حين يقول له الخال إنه يجب أن يتصرف باعتباره ضيفًا سوف يرحل آجلًا أم عاجلًا.

وكان يردّ على الأبنودي بهدوء شديد قائلًا: مَن قال إنني سوف أرحل؟ ثم أن إخوتك لا يملكون الحق في الضيق بي لأنني في هذا البيت أسلك في إطار حقوقك أنت، إذ إنني أنت، وإذا لم يكن يعجب أبناء الشيخ وجودي بينهم فليرحلوا»!

راقبه أبناء الشيخ الأبنودي أيامًا ثم قرروا أنه مجنون، وأنه ليس من الطبيعي لرجل لا يعرفون عنه شيئًا أن يصبح عضوا دائمًا في البيت يعرف أسراره، ويحضر الشجارات ويتدخل فيها وينحاز إلى جانب ضد جانب، ويفعل ما يشاء وقتما يشاء.

هكذا أقام يحيى الطاهر في بيت الشيخ، كأنه نزل إليهم بالباراشوت لينزرع في قلب أمل وعبد الرحمن دون سابق معرفة أو إنذار، كأنه يحيا بينهم منذ ولادتهم.

«٢»

يحيى الطاهر شخصية بديعة ومبدعة لكنه أيضًا -مثل أفذاذ كثيرين- به مَسٌّ من جنون؛ فذات يوم قرر أن يترك عمله، ويتفرغ للقراءة، وذهب إلى أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي ليبلغهما القرار، حينها ثار أمل في وجهه ثورة عنيفة، فإذا بيحيى يقول: «طب وفيها إيه يا أمل؟ فيها إيه يا خيّي؟ أنا جيت من الكرنك علشان أشوفكم انتو ولّا عشان الوظيفة؟ يحطع الوظيفة واللي يعوز الوظيفة».

قال أمل: «وكيف تأكل وتشرب وتدخن هذا الكم من السجائر التي لا ندخنها مجتمعين؟».

ويرد يحيى: «إهدا بس يا خيّي. الأكل والشرب عند الحاجة أم عبد الرحمن، الأكل في بيت الشيخ الأبنودي يكفي جَبيلة، أما عن الدخان فمتآخذنيش ده انت أبو الكرم، مثلا علبة السجاير دى جابها لي مصطفى الشريف...».

ويصرخ أمل قائلًا: «وكمان عرفت مصطفى الشريف؟ إمتى وفين؟».

يقول يحيى الطاهر: «لقيته في الندوة واتكلمت معاه، وكلمة من هنا وكلمة من هناك لقيت الراجل حبّني وراح اشترالي علبتين سجاير».

المدهش أن يحيى الطاهر كان قد ترك عمله قبل أن يحزم حقائبه ويحملها إلى قنا، لكن كان يدرك أن هذا القرار سيتسبب في ثورة ضده، لذلك كتمه في قلبه، ولم يبلغ به أحدًا، بل ادّعى أنه انتقل للعمل من وزارة الزراعة في الأقصر إلى قنا حتى يقتنع

الجميع بما فعله.

منذ ذلك الوقت صار عبد الرحمن وأمل وثالثهم يحيى الطاهر لا يفترقون أبدًا، يأكلون ويشربون ويسهرون معًا.

لكنها صدفة عجيبة ومذهلة أيضًا أن يُمنح الجنوب ثلاثة على هذا القدر من العبقرية والتفرد في زمن واحد، شاعران فذّان، وأديب متفرد، إلا أنهم من كثرة «العِشرة» و«العيش والملح» صاروا ثلاثة شعراء؛ إذ لُقب يحيى الطاهر بشاعر القصة القصيرة.

«٣»

وُلد يحيى في ٣٠ أبريل ١٩٣٨ في قرية الكرنك بمحافظة الأقصر، ورحلت والدته عن الدنيا وهو في سن صغيرة، وتركته مع أخواته الثماني، فربّته خالته التي صارت زوجة أبيه في ما بعد، أما والده فكان شيخًا معمّمًا يقوم بالتدريس في إحدى المدارس الابتدائية بالقرية، فطبع حب اللغة العربية في قلب نجله، لكنه لم ينل حظه الوافر من التعليم، فقد تلقّى تعليمه في قرية الكرنك حتى حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة ثم عمل بوزارة الزراعة لفترة قصيرة.

لكنه ترك الوظيفة وسار خلف حلمه، وبدأ يقرأ بنهم شديد، ويكتب بتركيز كبير، لمدة عامين متتاليين دون أن ينشر شيئًا، وفي ١٩٦١ كتب أولى قصصه القصيرة «محبوب الشمس»، والتقى يوسف إدريس، وحين قرأ قصصه في مقهى «ريش» قرر أن يقدمه في مجلة «الكاتب»، وإدريس لا يعترف إلا بالأفذاذ.

واستمرت رحلة يحيى الطاهر وانطلق كالشهاب، لا أحد يمكن أن يوقِف قطار إبداعاته، فكتب «ثلاث شجيرات تثمر

برتقالا»، و«الطوق والأسورة»، و«الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة»، وغيرها من الأعمال الأدبية التي تجعله واحدًا من علامات الأدب، لكن المواهب الكبرى غالبًا ما ترحل سريعًا، ففي التاسع من أبريل عام ١٩٨١ رحل قبل أن يكمل عامه الثالث والأربعين في حادثة سيارة على طريق «القاهرة-الواحات»، وحينذاك لم يصدق أحد أن صاحب هذه الموهبة الجبارة قد رحل فجأة، وكتب عنه عملاق القصة القصيرة يوسف إدريس مقالا بعنوان «النجم الذي هوى»، ورثاه الأبنودي، وقال عنه أمل دنقل:

«ليت أسماء تعرف أن أباها صعد
لم يمُتْ
هل يموت الذي كان يحيا
كأن الحياة أبَدْ
وكأن الشراب نَفَدْ
وكأن البنات الجميلات يمشين فوق الزبد!!»



الفهرس

كتب مُلهِمة

- «سيرة الحبايب»، «مصر يا ولاد»، سناء البيسي.
- «الظُرَفَاء»، «عودة الحمار»، محمود السعدني.
- «أي كلام»، أحمد رجب.
- «ألعاب السيرك السياسي»، مصطفى محمود.
- «أفكار ضد الرصاص»، «ممنوع من التداول»، محمود عوض.
- «من هنا نبدأ»، «هذا أو الطوفان»، خالد محمد خالد.
- «أيام لها تاريخ»، أحمد بهاء الدين.
- «ضحكات صارخة»، محمد عفيفي.
- «رحلة إلى قلب نهرو»، محمد عودة.
- «أنا وبارونات الصحافة»، جميل عارف.
- «تأملات ساخرة»، «صائمون والله أعلم»، أحمد بهجت.
- «الأعمال الكاملة»، أمل دنقل.
- «الأعمال الكاملة»، محمود درويش.
- «الأعمال الكاملة»، عبد الرحمن الأبنودي.
- «الأعمال الكاملة»، فتحي غانم.
- «الأعمال الكاملة»، صلاح جاهين.
- «شخصية مصر»، جمال حمدان.
- «هم وأنا»، صالح مرسي.
- «الذين أحبوا مي»، كامل الشناوي.
- «أفكار للبيع»، علي أمين.

- «دبّرنا يا وزير»، صلاح حافظ.
- «قُصَر الكلام»، جلال عامر.
- «شخصيات وتجارب»، «الإمام المراغى»، رجاء النقاش.
- «صديقي لا تأكل نفسك»، «اندهش يا صديقي»، عبد الوهاب مطاوع.
- «أخبار المصريين في القرن العشرين»، سعيد هارون عاشور.



أولياء الكتابة الصالحون
محمد توفيق
ليس فى الأمر شبهة مجاملة حينما أقول أن محمد توفيق يمكن اعتباره جبرتي مهنة الصحافة فى جيلها الأحدث، اختار طريقا مختلفا يضخ فيه موهبته ومجهوده بأن أخلص للكتابة عن أساتذة مهنة الكتابة بحب ندر أن عبر معظمنا عنه، كان يقظا بما يكفى لأن يلحق كثير من هؤلاء الأساتذة بكلمات المحبة والتوثيق وهم لازالوا بيننا على عكس الوسط الصحفى الذى يمجد الأساتذة فى موالد التأبين فقط، وكان مخلصا بما يكفى لعدم التوقف عند الأسماء اللامعة فقط بل أعاد لبعض الأساتذة حقهم الأدبى الذى ضاع فى الزيطة، هذا كتاب ممتع لا يخلو أبدا من الرقة والنبل.
عمر طاهر
تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف
كيان


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية